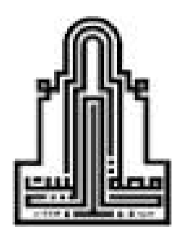




جامعــــــة آل البيـــــت
الدراســـــات العليـــا
كليــة الآداب والعلــوم الإنـسانية
قــــسم التـــاريـــخ

دور المرأة في مصر خلال العصر المملوكي الأول

(٦٤٨ـ٧٨٤هـ/١٢٥٠ـ١٣٨٢م)

"دراسة تحليلية"

The Role of Women in Egypt During the Early Mamluk Period (648-784 H / 1250-1382 AD)

"Analytical Study"

إعداد الطالبة:

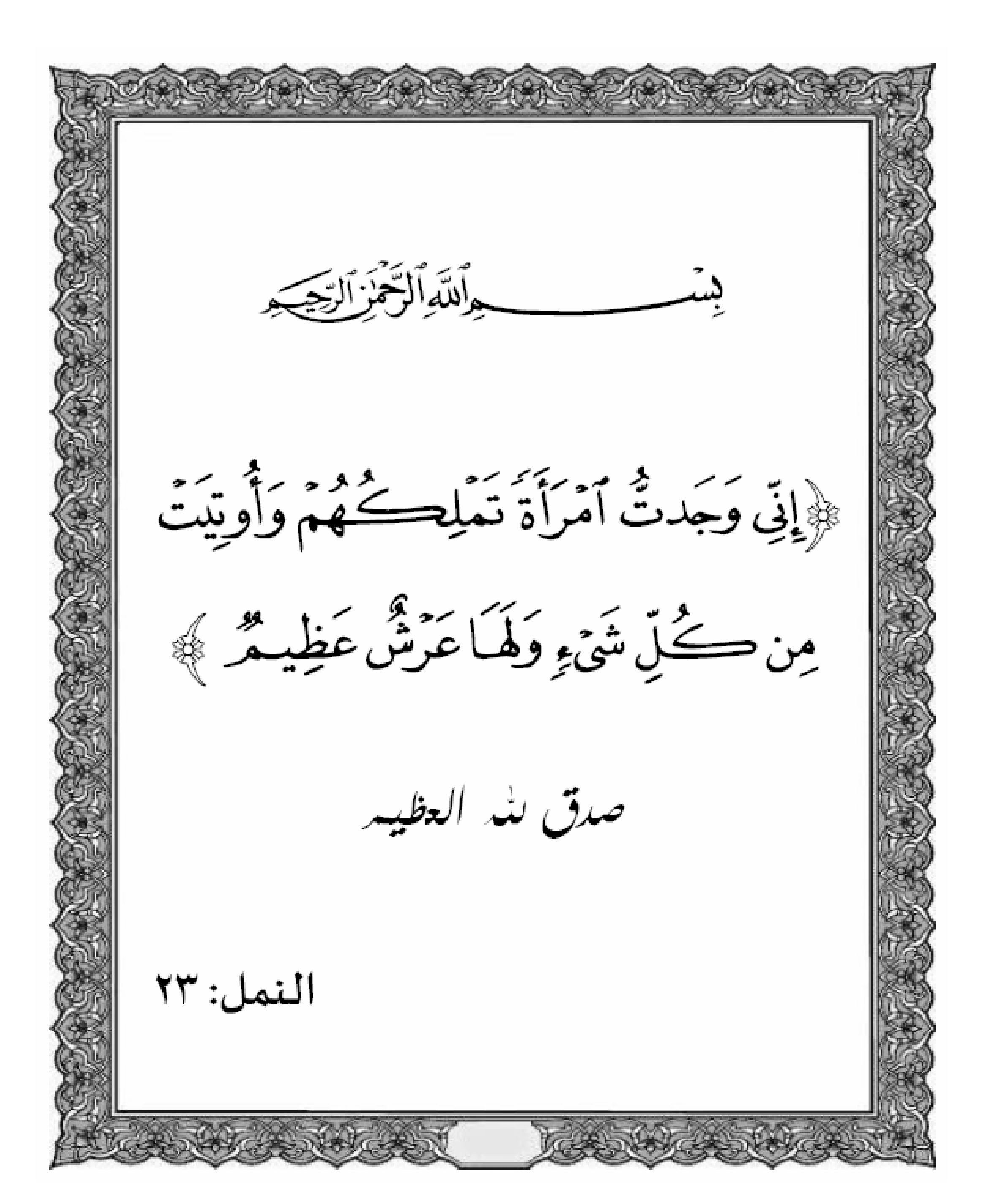
سجى محمد لطيف التميمي

١٣٢٠٣٠٣٠١٨

بإشراف

أ. د. عليان عبد الفتاح الجالودي

الفصل الثاني ١٤٣٦هـ / ٢٠١٦م



بسم الله الرحمن الرحيم
﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةً تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾
صدق الله العظيم
النمل: ٢٣

التفويض

أنا الطالبة: **سجى محمد لطيف عبد علي التميمي**، أفوض جامعة آل البيت بتزويد نسخ من رسالتي للمكتبات أو المؤسسات أو الهيئات أو الأشخاص عند طلبهم حسب التعليمات النافذة في الجامعة.

التوقيع: ....

التاريخ: / /٢٠١٦م

الإقـــرار

أنا الطالبة: سجى محمد لطيف التميمي **الرقم الجامعي: ١٣٢٠٣٠٣٠١٨**

التخصص: التاريخ **كلية: الآداب والعلوم الإنسانية**

أقرُّ بأنني قد التزمتُ بقوانين جامعة آل البيت وأنظمتها وتعليماتها وقراراتها السارية المفعول والمتعلقة بإعداد رسائل الماجستير والدكتوراه، حيث قمت شخصيًا بإعداد رسالتي الموسومة بـــ:

"دور المرأة في مصر خلال العصر المملوكي الأول"

(٦٤٨هـــ - ٧٨٤هـــ / ١٢٥٠- ١٣٨٢م)

(دراسة تحليلية)

بما ينسجم مع الأمانة العلمية المتعارف عليها في كتابة الرسائل والأطاريح العلمية، كما أنني أعلم بأن رسالتي هذه غير منقولة أو مستله من رسائل أو كتب أو أبحاث أو أية منشورات علمية تم نشرها أو تخزينها في أي وسيلة إعلامية، وتأسيسًا على ما تقدم، فإنني أتحمل المسؤولية بأنواعها كافة فيما لو تبين غير ذلك بما فيه حق مجلس العمداء في جامعة آل البيت بإلغاء قرار منحي الدرجة العلمية التي حصلت عليها، وسحب شهادة التخرج مني بعد صدورها، دون أن يكون لي أي حق في التظلم أو الاعتراض أو الطعن بأي صورة كانت في القرار الصادر عن مجلس العمداء بهذا الصدد.

توقيـــع الطالبة: ....

التاريخ: / /٢٠١٦م

قرار لجنة المناقشة

دور المرأة في مصر خلال العصر المملوكي الأول (٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م)

"دراسة تحليلية"

The Role of Women in Egypt During the Early Mamluk Period

(648-784 H / 1250-1382 AD)

"Analytical Study"

إعـــداد

سجى محمد لطيف التميمي

١٣٢٠٣٠٣٠١٨

إشراف الأستاذ الدكتور

عليان عبد الفتاح الجالودي

أعضاء لجنة المناقشـــــة	التوقيـــــــع
أ.د عليان عبد الفتاح الجالودي (مشرفاً ورئيساً)	....
د. أنور عودة الخالدي (عضواً)	....
د. علاء كامل سعادة (عضواً)	....
د. عيسى محمود العزام (عضواً خارجياً)	....

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التـــاريخ فـــي كليـــة الآداب والعلوم الإنسانية – قسم التاريخ في جامعة آل البيت.

نوقشت وأوصى بإجازتها يوم الثلاثاء الموافق: ١٢/٤/٢٠١٦م



إلهي لا يطيب الليل إلا بشكرك ولا يطيب النهار إلا بطاعتك... ولا تطيب اللحظات إلا بذكرك.... ولا تطيب الآخرة إلا بعفوك... ولا تطيب الجنة إلا برؤيتك....

إلى اللـذين منحوني رضاهـم ودعواتهم ..... إلى من أمرني الله جل في علاه أن أرفق بهما، ... أطال الله في عمرهما

أمي ... وأبي

إلى الذي لـم يبرح حتى أنجـزت عملي هـذا .....

زوجي الغالي

إلى زهـــــرات حيـــاتي ...

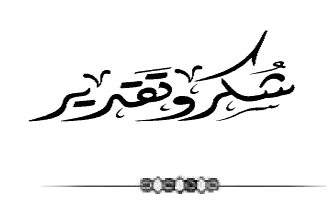
أولادي وبناتي

إلى مصدر عزتي وثقتي الداعين لي بالخير والتوفيق ....

إخوتي وأخواتي، حفظهم الله

أهدي لكم جميعا ثمرة ذا الجهد المتواضع

الباحثة



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعهم إلى يوم الدين.

فبعد أن وفقني الله إلى كتابة هذه الدراسة، أتوجه بالشكر الجزيل إلى الأستاذ الدكتور عليان عبد الفتاح الجالودي، الذي تكرم بالإشراف على رسالتي ومنحني من وقته وجهده، ما أعانني على تجاوز الكثير من العقبات.

كما أتقدم بجزيل الشكر والعرفان إلى جميع أساتذتي الأفاضل بقسم التاريخ، جامعة آل البيت، وأتقدم بشكري وتقديري إلى أعضاء لجنة المناقشة لتفضلهم بقبول مناقشة رسالتي.

وأخيراً أقدم خالص شكري وتقديري إلى كل من أسهم في إنجاز هذا العمل المتواضع.

قائمة المختصرات

الرمز	المدلول
ت	تاريخ الوفاة
هـ	التاريخ الهجري
م	التاريخ الميلادي
ق	القرن
ط	الطبعة
ج	الجزء
ص	الصفحة
د. ط	دون طبعة
د. ت	دون تاريخ
د. ن	دون دار نشر
ع	العدد بالنسبة للدوريات
P	رقم الصفحة بالإنكليزي
Vol.	رقم الجزء بالإنكليزي
Ibid	المصدر نفسه بالإنكليزية

قائمة المحتويات

دور المرأة في مصر خلال العصر المملوكي الأول

(٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م)

"دراسة تحليلية"

إعداد الطالبة: سجى محمد لطيف التميمي

إشراف: الأستاذ الدكتور عليان عبد الفتاح الجالودي

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى تقديم صورة شاملة عن دور المرأة في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للمرأة خلال العصر المملوكي الأول (٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م)، والدور الذي لعبته المرأة المملوكية في كافة المجالات، إذ نتج عن هذا الدور آثاراً إيجابية وأخرى سلبية على المجتمعات في ذلك الوقت. حيث كان لبعض النساء المملوكيات أثر واضح في تقوية أسس ومقاليد الدولة ودعم أركانها، في حين كان للبعض الآخر أثر واضح وكبير في إضعاف الدولة وانهيارها. ويظهر هذا جلياً من خلال حكم السلاطين إن كانوا من الأقوياء أو من الضعفاء، لذلك برز دورهن في حالة حكم السلاطين الضعاف.

لقد حُظيت المرأة بمكانة مرموقة في المجتمع الإسلامي بشكل عام وفي المجتمع المصري على وجه الخصوص، وشكّلت منعطفاً مهماً في تطور الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والثقافية. كذلك فإن المرأة في العصر المملوكي الأول تعتبر من الموضوعات المهمة التي تستحق الدراسة والبحث، سيما وأن الدولة المملوكية ولدت من خلال مخاض عسير وصراع مرير على السلطة، مما أدى إلى قيام المرأة المملوكية بممارسة دوراً بارزاً في النواحي السياسية وفي الحياة العامة بشكل عام؛ إذ تركت بصمات واضحة في تطور الأحداث.

تتكون هذه الدراسة من تمهيد وثلاثة فصول رئيسة وأخرى فرعية، فضلاً عن المقدمة والخاتمة وقائمة المصادر والمراجع.

وفي الفصل التمهيدي تم تسليط الضوء على أهمية المجتمع الإسلامي وكيفية تدخل بعض العناصر الأجنبية في الحكم من أتراك وفرس وغيرهم، بالإضافة إلى بروز دور النساء في الحكم وقيادة الدولة للحد من نفوذ التدخل الأجنبي.

في حين تناول الفصل الأول المعنون بـ "دور المرأة في الحياة السياسية في العصر المملوكي الأول " البحث في دور أمهات وزوجات السلاطين في الحياة السياسية من أمثال شجر الدر التي كان لها دور قيادي كبير في الحياة السياسية، إذ كانت تؤدي دوراً كبيراً في الدولة وإدارة زمام الأمور. حتى أنه بعد وفاة زوجها وتوليها السلطة لفترة قصيرة نسبياً إلا أنها كانت الأساس في مجريات الأحداث في ذلك الوقت، كما كان للسيدة أشلون خاتون تأثيراً في الحكم، أما السيدة طغاي أم أنوك فقد كانت عظيمة منذ أن تزوجت بالسلطان الناصر، حيث برز دورها على الصعيد السياسي، أما السيدة بركة خاتون أم السلطان الأشرف فقد كانت امرأة محل احترام الجميع كونها تحب الناس وتعطف على الفقراء والمحتاجين. وغيرهن العديد من النساء اللواتي لهن الدور البارز والمؤثر في الحياة السياسية والاجتماعية.

أما الفصل الثاني فقد تناول دور المرأة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية حيث كان لها دوراً مميزاً في الوقف الإسلامي، حيث قامت زوجات وأمهات السلاطين بإنشاء العديد من الأوقاف من أجل أن تعود بالنفع على المجتمع ممثلاً بتقديم المهام والمساعدات المادية للناس المحتاجين وبالتالي أصبحت هذه الأوقاف ذات نفع كبير للمجتمع المصري، إذ تنوعت ما بين المساجد وبيوت السكن والحمامات العامة وغيرها.

أما المستوى المعيشي للمرأة المملوكية فقد غلب عليه طابع البذخ والترف. فالزواج والمهور واللباس وأدوات الزينة تميزت بالترف الكبير من حيث التجهيز والشراء. أما العادات والتقاليد الاجتماعية فقد كانت متعددة وكان لكل عادة من هذه العادات شكل خاص ومميز من حيث الإعداد والإسراف بشراء مستلزمات تحضير هذه المناسبات.

كما تطرقت الدراسة في فصلها الثالث إلى دور المرأة في الحياة العلمية والثقافية، حيث برز دور المرأة في العديد من العلوم مثل علوم القرآن الكريم والحديث والفقه، وعلوم اللغة والأدب والنحو، كما اصبح هناك وجود للمرأة في المنشآت الدينية والخيرية، حيث مارسن دوراً بارزاً في حفظ القرآن والحديث والتلاوة. كما أن المرأة المملوكية برزت في بناء المساجد والبيمارستانات وتحقيق الأوقاف عليها والتي كان لها دور كبير في المجتمع الإسلامي من حيث تقديم الخدمات.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على المرأة في العصر المملوكي الأول، لما للمرأة من دور أساسي في المجتمع، وما نهضت به من دور هام في الحياة بشكل عام، وبيان تأثيرها على الحياة العامة، والتي تركت أثاراً إيجابية وأخرى سلبية على تطور مجريات الأحداث، وشكلت منعطفاً مهماً في تطور الدولة المملوكية، وتقييم هذا الدور وأثره في الدولة، حيث كان دور النساء يظهر جلياً خلال فترات القلق والضعف والفوضى السياسية، ومنهن من أسهمن في حماية الدولة من الأخطار المحدقة بها، لذلك قدمت هذه الدراسة إلى تقويم دور المرأة بمنهجية جديدة تتيح للباحثة التمتع في الحصول على المعلومة بكل سهولة ويسر.

وقد اشتملت هذه الدراسة على تمهيد وثلاثة فصول رئيسية، عالجت الباحثة في الفصل الأول دور المرأة في الحياة السياسية في العصر المملوكي الأول وكيف لعبت المرأة دور ظاهر في الحياة السياسية، وتحدثت الباحثة عن أمهات السلاطين، وكيفية وصول المرأة إلى السلطة، وتناولت في الفصل الثاني دور المرأة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ودور الوقف عند نساء السلاطين، ومستوى معيشة المرأة، وتحدثت الباحثة عن مظاهر الحياة الاجتماعية من اللباس، أدوات الزينة، المهور، الزواج، الطلاق، ومظاهر العادات والتقاليد الاجتماعية، وعاداتهم ومساهمتها في استقلال الرجال عن النساء في الطعام، أما الفصل الثالث تناولت دور المرأة في الحياة الدينية والثقافية (علوم اللغة والأدب والنحو والحديث والقرآن الكريم) وكيف برزت في مصر في عصر المماليك البحرية كثير من النساء على صعيد العلوم الإنسانية كعلوم اللغة والأدب والثقافة.

التعريف بأهم المصادر والمراجع:

أولاً: كتب الحوليات:

١- **ابن عبد الظاهر**، القاضي محيي الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر السعدي المصري (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م)، كان يشغل منصب كاتباً في ديوان الإنشاء بالقاهرة في نفس الوقت الذي تولى فيه الملك الظاهر بيبرس عرش السلطنة، وكان مرافقاً للملك الظاهر بيبرس، وقد ألف عدة سير أهمها:

الروض الزاهر في سير الملك الظاهر، والتي خصصت للملك الظاهر بيبرس التي تعد موضوعاً لامعاً في سيرته، وهي مادة غزيرة بالأحداث التي تتعلق بالصراع بين الدولة المملوكية والإفرنج والمغول، وفضلاً عن المعلومات الوفيرة عن أعمال الظاهر بيبرس خلال فترة توليه السلطنة، وحملاته العسكرية التي كان يقودها بنفسه ضد السلاجقة والروم، ويعد ابن عبد الظاهر شاهد عيان لكل الأحداث التي يشارك فيها.

ويذكر أن من أبرز ما يؤخذ على أسلوبه السجع، ويضيف بعضهم أن عنده الضعف الواضح في عدم ترتيبه أو عدم إتقانه لكثير من الضمائر عندما يريد استعمالها في الجمل، وكذلك حروف الجر، مما أبدى بعض الباحثين التذمر من كتابته وأسلوبه، وإن جمله في بعض الأحيان غير مترابطة، لهذا تجد القارئ يفقد الترابط بين جملة وأخرى.

وعلى الرغم مما يؤخذ على أسلوبه إلا أنه الكثير من المؤرخين رجعوا إليه في الإسناد إلى كتابه وإقتباس بعضهم من هذا الكتاب، ومنهم المقريزي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م)، حيث اقتبس منه في خططه التي تتعلق بالمواضيع الرئيسية، وكذلك رجع القلقشندي (ت ٨٢٠هـ/١٤٢١م) إلى كتاب ابن عبد الظاهر في الكثير من المواضيع التي أثرت كتابه مثل "صبح الأعشى في صناعة الإنشا" بمعلومات مهمة والتي تبدو واضحة بين ثنايا كتابه.

ويثني بالقول بأن ثقافة ابن عبد الظاهر تعتبر ثقافة عالية، ومن هؤلاء المؤرخين الكتبي (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، ويزيد على ذلك ويقول بأنه كان حريصاً على العلم والتعلم، حيث لم تقتصر مادته على تلك المادة التي استقاها على أيدي أساتذته، ولكنه أضاف بذلك الكثير من المعلومات التي تتعلق بالعلوم الأخرى، ومن تلك المعلومات علوم التأريخ والحوليات لأنهم كان منجذباً إليها وإلى جوانبها المهمة، ويؤكد الكتبي بأن ابن عبد الظاهر يتحلى بثقافة أدبية عالية وله باعٌ طويل في منهجية الكتابة، وتنظيم كتاباته بصورة متسلسلة وحسب السنوات.

٢- **ابن تغري بردي**، جمال الدين أبي المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، بدأ المؤلف كتابه منذ الفتح العربي لمصر سنة

٢٠هـ/٦٤٠م، وينتهي في تدوينه إلى ٨٧٢هـ/١٤٦٧م، وتحدث فيه عن مصر ومحاسنها، وأحوال النيل وتقلباته، ووفائه وشحته من عام إلى عام، وتكلم فيه عن خراج مصر، وتوسع في حديثه عن مصر في العصرين الفاطمي والأيوبي، وبعد أن سرد أخبار الدولة المملوكية، ووصل بعصره، بدأ الكتاب يأخذ سجل يومي حولي من عهد الناصر فرج بن برقوق تقريباً حتى عهد الأشرف قايتباي.

اتبع ابن تغري بردي نظام الحوليات في تدوين مادته التأريخية، إلا أنه خالف منهج أستاذه تقي الدين المقريزي، حيث وضع كل فترة من فترات السلاطين، فصل في حد ذاته، ومن ثم كتب السنين وأحداثها تباعاً داخل الفصل حتى يصل إلى وفاة السلطان ويتكلم عنه على شكل ترجمة منفصلة يتخللها أحداث أحياناً ثم يرتب سنين عهد السلطان ترتيباً عددياً، وكان من المصادر المهمة للدراسة لما فيه من ذكر للأسواق والضرائب وأعمال السلاطين، ويعتبر من المصادر المهمة بسبب أسلوبه في الكتابة حيث خصص لكل عهد في عهود السلاطين والملوك فصلاً قائماً بذاته، بالإضافة إلى ذكر الحوادث والسنين بشكل متسلسل دون أن يجعل لها عناوين مستقلة، وهذا المصدر من المصادر المهمة التي أفادت الرسالة بشكل كبير ويعتبر مصدر مهم لتاريخ الدولة المملوكية وخصوصاً في الحياة السياسية والاقتصادية.

٣- **أبن خلكان:** شمس الدين محمد بن بكر (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م) وكتابه وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: وهو من أهم كتب التراجم لان المؤلف أعتمد على الكثير من المصادر المتنوعة، وقد أعمدت الدراسة على كتاب التراجم هذا في جميع فصوله.

٤- **المقريزي،** أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م)، ولد بمدينة القاهرة سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٤م ونشأ فيها، عرف باسم المقريزي نسبة إلى عائلته التي كانت تقطن حارة المقارزة في مدينة بعلبك. عكف على دراسة القرآن، وعلوم الدين، والتأريخ وغيرهما، وتقلد الكثير من الوظائف، آخرها وظيفة الحسبة في القاهرة، ويعتبر المقريزي من أشهر المؤرخين المسلمين، وله الكثير من المؤلفات التأريخية، وتميزت كتاباته بالدقة في إيراد الحقائق التي تعتبر من أهم المصادر التأريخية.

ويعد المقريزي من كبار مؤرخي المسلمين، وله العديد من المؤلفات التأريخية، وأهم ما يميز كتاباته، الدقة والموضوعية والمكانة، وقد اعتمد الباحث على كتابين للمقريزي هما: "السلوك لمعرفة دول الملوك"، وكتابه الثاني "المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار".

وقد كان المقريزي ذو شخصية مرموقة في زمانه، ويعد من أكثر المؤرخين في التأريخ الإسلامي دقة في معلوماته وكتاباته ونشاطاته الواسعة، والعمل المميز ودراسته المهمة، وتفوقه

بالجوانب الاجتماعية والعلمية والتأريخية والثقافية، ويعتبر الأول في تأسيسه للمدرسة التأريخية التي كانت تزدهر في مصر آنذاك، وقد كان المقريزي محباً للتأريخ ويعتبر مخالفاً لكل المؤرخين العرب، لأنه لم يتطرق إلى كتابة أي شيء في أي من المجالات الأخرى سوى التأريخ.

وفي هذين المؤلفين أورد المقريزي الكثير من المعلومات التأريخية التي أغنت موضوع الدراسة في الكثير من جوانبها، ومن أهم المصادر التي اعتمد عليها المقريزي، كتاب تأريخ "ابن الفرات" لابن الفرات محمد بن عبد الرحيم بن علي الحنفي ت (٨٠٧هـ/١٤٠٨م)، وكتاب خطط مصر للأوحدي أحمد بن عبد الله بن حسن بن طوخان (ت ٨١١هـ/١٤١٢م).

ويعد كتاب "السلوك" واضح العبارات وشامل لجميع الأحداث ويتصف بدقة المعلومات، وقد تطرق إلى الكثير من التغيرات في النظم السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية وزودنا بكثير من الأخبار عن الدولة المملوكية، أما كتابه الثاني الخطط، فكانت له فائدة عامة للدراسة وأغناها بالكثير من الجوانب الحضارية والجوانب التأريخية، وقد تمت الاستعانة بهذا المؤلف الغني بكل الموضوعات، العمران والأوقاف والزراعة والاقتصاد، وقد اتبع في كتاباته النظام الحولي حيث قام بتدوين الحوادث لكل عام في فصل مستقل وتحت عنوان واسم ذلك العام وختم الحوادث بذكر الوفيات والترجمة لأصحابها وتأتي أهمية هذا المصدر إن المؤلف شاهد عيان للأحداث التي تناولتها الدراسة، فقد صوّر المقريزي صور الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية في عهده تصويراً دقيقاً، وقد استفدت من المصدر في أكثر فصول الرسالة.

ثانياً: كتب التراجم:

١- ابن خلكان، شمس الدين محمد بن بكر (ت ٦٤٨هـ/١٢٨٢م)، وكتابه "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان"، وهو من أهم كتب التراجم لأن المؤلف اعتمد الكثير من المصادر المتنوعة، ويعد هذا الكتاب من المصادر المهمة والرئيسية في دراسة عصر الدولة المملوكية، وذلك بإيراده الأخبار الكثيرة والتي تتعلق بالسلاطين والأمراء والعلماء وأهم الشخصيات في ذلك العصر.

٢- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان قيماز الذهبي (ت ٨٧٤هـ/١٣٤٦م)، نشأ في عائلة تهتم بالعلم، وكان اهتمامه في القراءات والحديث وأبدع في اللغة والشعر والتأريخ، واستند إلى عدد من المصادر التي اعتمد عليها في كتاباته، ومن أهم تلك المصادر كتاب "وفيات الأعيان لابن خلكان" (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م)، وكانت مؤلفاته كثيرة والتي أفادت الدراسة كثيراً، ومن المؤلفات الأخرى كتابه "سير

أعلام النبلاء" وكتابه "تاريخ الإسلام" وكتابه "العبر في خبر من غبر"، وقد أورد الحوادث في مؤلفاته سنة بعد سنة، وذكر وفيات كبار الخلفاء والسلاطين والأمراء والعلماء والمحدثين، وقد استفادت الباحثة من المعلومات التي أوردها بين ثنايا التراجم التي تُرجمت في عصر السلطان الظاهر بيبرس.

وتُعدُّ كتب التراجم من المصادر الرئيسية والمهمة التي أفادت الدراسة بشكل كبير من خلال معلوماته المتعلقة والمتناثرة لشخصيات المترجم لها، واستفدت منها في جميع فصول الدراسة وخاصة الحياة الفكرية فكتب التراجم تركز على ترجمة النساء العالمات، وتذكر ما يتعلق بهن من الأمور الاجتماعية، وأيضاً استفدت من هذه الكتب في حصولي على المعلومات السياسية، فهي تترجم الشخصيات النسائية التي كانت لها دور في الحياة السياسية كأمهات وزوجات السلاطين اللواتي كان لهن دوراً بارزاً في الحياة السياسية، كما واستفدت من هذه الكتب في الحديث عن الجواري والمغاني، فهي تُظهر أشهر المغاني والجواري اللواتي كان لهن دوراً بارزاً في العصر المملوكي.

ثالثاً: الموسوعات:

١- **القلقشندي**، زين الدين عبد الرحمن بن الشيخ شمس الدين محمد بن إسماعيل القلقشندي، الشافعي، (ت ٨٢٠هـ/١٤١٢م)، صاحب كتاب "صبح الأعشى في صناعة الإنشا"، وقد تقلد مناصب كثيرة في الدولة المملوكية، وهي التي مكنته من الاطلاع على جميع الدواوين، وأعطى للدراسة قيمة كبيرة من خلال ما يتعلق بالأنظمة الإدارية.

وما يلفت النظر إلى منهج القلقشندي في كتاباته أنه كاتب يتصف بالأمانة، وينسب كل ما يُكتب أو ينقل من المؤلفات السابقة، هذا إلى جانب الأمانة والدقة في نقله لتلك المعلومات، وإذا قام بإضافة شيء أو يبدي برأيه فإنه يقوم بذلك، ولكن يلتزم باحترام غيره واحترام رأي الآخرين، خاصة أولئك المؤرخين السابقين الذين ينقل منهم.

والقلقشندي هو أديب رائع متمكن ومجتهد في نفس الوقت، وهو من أصحاب الأقلام التي تجلس على عرش الثقافة الواسعة، في كل الميادين العلمية والأدبية والتأريخية وعلوم الفنون الأخرى، ويمتلك أسلوب يتسم بالسلاسة.

وتعد كتاباته نسيج يتسم بالجمالية تعبر عن أدب رائع وجميل مستوحاة من روائع الأدب والنثر في ذلك العصر، ومن الأدباء الذين عاصرهم، أولئك المؤرخين الذين يتقنون صناعة العبارات الرائعة والجميلة في الأسلوب الإنشائي والأدبي والعبارات التي تحمل في طياتها روائع الكلم ولطائف الجمل.

ويعد كتاب "صبح الأعشى" على جانب كبير من الأهمية، ويزودنا بالكثير من النصوص التأريخية والإدارية والتجارية، والكثير من المعاهدات والاتفاقيات التي تشمل شتى المجالات، وتطرق إلى ذكر الوظائف الحكومية بالتفصيل، وعُني بكبار السلاطين والأمراء في المناسبات الدينية والأعياد وغيرها.

وقد استفدت من هذا المصدر في المكاتبات التي كانت يرسلها السلاطين لنسائهم في توضيح بعض المصطلحات التي تهم الدراسة.

٢- **النويري**، أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م)، كتابه "نهاية الأرب في فنون الأدب"، وهو موسوعة تأريخية إدارية وجغرافية، وجمع فيه خلاصة التراث العربي من تأريخ وأدب، وقد كان كتابه يتميز بوفرة المعلومات القيمة والدقيقة، ومعلوماته الكثيرة عن الأراضي في الدولة المملوكية، وعن الإقطاع وكيفية تعامل أصحاب الأراضي مع الفلاحين، وامتاز كتاب "نهاية الأرب" بذكره المعلومات المهمة عن الأوقاف، ومنها أوقاف المدارس والزوايا والخانات ودور العلم التي تعتني بتعليم الصبيان، وذكره الأمور التي تتعلق بجوانب الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية والعلمية، ويعد كتابه من الموسوعات التأريخية العامة، وقد شغل وظائف عديدة في النظام الإداري المملوكي، وقد استعانت الباحثة بأجزاء من كتابه التي احتوت على مادة غنية شملت التأريخ المملوكي والأحداث السياسية والاجتماعية، وكلها أفادت الدراسة في الكثير من جوانبها.

ويعد كتاب "نهاية الأرب" على جانب كبير من الأهمية، وقد زودنا بالكثير من المعلومات التأريخية، كالنظم الإدارية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتطرقه إلى ذكر الوظائف بالدولة المملوكية بالتفصيل، وقد تحدث عن المناسبات الدينية والأعياد وغيرها، والتي تخص المجتمع في ذلك العصر.

كتب الرحلات:

ابن بطوطة، أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم المعروف بابن بطوطة، (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، والمعروف برحلة ابن بطوطة، "تحفة الأنظار في غرائب الأمصار"، وقد بدأ رحلته عام ٧٢٥هـ/١٣٢٥م، فزار بلاد الشام ومصر، ووصف بعض مدنها وقرأها، وترك وصفاً جغرافياً مهماً واعتمد على مشاهداته، وكانت الإفادة من هذا الكتاب في جميع فصوله. ففي الفصل الأول كانت الإفادة فيما ذكره عن المدينة، وفي الفصل الثاني كان يورد معلومات عن كل صناعة تشتهر فيها كل مدينة مصرية، وكذلك يعطي وصف للطرق التي مر بها في رحلته، ومن هذا تم الإفادة عند تناول الطرق التجارية العالمية.

رابعاً: الدراسات الحديثة والمراجع:

إن أهم الدراسات الحديثة التي استفادت منها الباحثة في إيضاح بعض جوانب الدراسة:

١- العبادي، أحمد مختار، "قيام الدولة المملوكية الأولى في مصر والشام"، والذي تحدث عن الدولة المملوكية، كيف نشأت ومن أين جاء المماليك وكيف وصلوا إلى السلطة، وهم أرقاء يباعون ويشترون في أسواق النخاسة، وفي بداية الدولة الإسلامية، وكذلك تناول اهتمام السلاطين والأمراء الذين تعاقبوا على عرش السلطنة المملوكية، بإكثارهم من شراء المماليك إلى أن صارت أعدادهم كثيرة، حتى أصبحت لهم القوة والكلمة الفصل في أمور السياسة، وقد تناولت الجوانب التي أوصلت المماليك إلى السلطة في ظل التطورات السياسية القائمة آنذاك، وقد تناول هذا الكتاب الجوانب الأساسية لقيام الدولة المملوكية، وما يميز دراستي عن هذا المرجع الحديث عن المماليك وكيفية وصولهم إلى السلطة، ودورهم في قيادة الأمة الإسلامية.

٢- عاشور، سعيد عبد الفتاح، كتابه "الظاهر بيبرس"، وقد تطرق المؤلف في كتابه إلى الأعمال التي قام بها الظاهر بيبرس وعن حياته، وأعماله في إحياء الخلافة العباسية، واهتمامه بنظام القضاء، وجهاده ضد الإفرنج والمغول، وكذلك تطرق للنظم الإدارية، واهتمامه بنظم البريد وتنظيمه للجيش والأسطول الحربي، وتحدث عن الجانب العمراني في عموم الدولة من مساجد ومدارس وجسور وقناطر وقلاع وحصون وخانات.

٣- ماجد، عبد المنعم، "نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر"، تناول هذا الكتاب الجوانب السياسية والأنظمة الإدارية الشاملة للدولة المملوكية، وكذلك تناوله للجوانب الاقتصادية والاجتماعية، وميز دراستي عن هذا المرجع الحديث بأنني لم أتناول منه سوى الجوانب السياسية التي تتعلق بالأنظمة الإدارية للدولة المملوكية، لأن هذا الكتاب يعتبر دراسة شاملة للحياة السياسية التي أسسها نخبة من سلاطين المماليك.

٤- عبد الرزاق، أحمد، "العلاقات الأسرية للمصطلح المملوكي"، المجلة التاريخية المصرية، مج، ٢٣، ١٩٧٦، ص١٥٥-١٨٢. من خلال دراسته لمجلة المرأة في العصر المملوكي فقد تطرق د. عبد الرزاق في هذه المجلة على المرأة في الحياة السياسية والثقافية، وبناء المدارس وأماكن العبادة وعن المرأة في الحياة الاجتماعية، ومكانتها، وعلى الأسواق وكيف تتعامل المرأة في السوق، والحمّامات وأماكن أخرى، وكيف كانت تتعامل المرأة في الاحتفالات والأعياد الرسمية وأيضاً تطرق عن زينة المرأة وعطرها وعن الجانب الفني والأدبي. قد استفدت من هذه الدراسة على المرأة وكيف كان لها دور بارز في كل

المجالات خاصة السياسي والثقافي وتطرقت أيضاً في رسالتي عن دورها في بناء المدارس والأماكن العامة ودور العبادة وعن مكانة المرأة بشكل عام في المجتمع المملوكي وعن مكانتها عند الخاصة.

٥- الرواشدة، آمنة محمد، "حيوات المرأة في العصر المملوكي في مصر والشام"، دراسة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، الأردن، ١٩٩٧. تناولت هذه الدراسة المجالات السياسية والاجتماعية والفكرية وقد جاءت في ستة أبواب وخاتمة وعرضت أهم المصادر التي تناولت دور المرأة في السلطنة حيث تناولت في الباب الأول الحياة السياسية ودورها فيها، حيث لعبت دوراً كبيراً في السياسة، وكانت مدبرة لشؤون الدولة، وأما الباب الثاني فقد تناول دور المرأة في الحياة الفكرية وتعلمها العلوم الدينية وأيضاً تصانيف المرأة وأعمال البر والإحسان والأوقاف التي قامت بها والتي احتسبتها على أوجه الخير، أما الباب الثالث فقد تناولت المرأة في الحياة الاجتماعية وحديثها عن المهور والزواج وعاداته وتقاليده عند الخاصة والعامة وكيف كانت الأسر واحتفالاتهم العائلية، أما الباب الرابع فقد تناولت المرأة من خلال ملابسها وزينتها وعنايتها بجمالها ومقاييس جمال المرأة في ذلك العصر، وخصصت الباب الخامس عن الجواري وأماكن جلبهن وأسعارهن والغرض من اقتنائهن، والأعمال التي يقمن بها ومدى تأثيرها على المجتمع والحياة العائلية والأدبية عند المماليك، أما الباب السادس فقد تناولت فيه الوجه الآخر للمرأة في العصر المملوكي حيث تحدث عن المغاني بالمجتمع المملوكي واهتمام السلاطين بالمغنيات وتشجيعهم لهن.

وقد استفدت من هذه الرسالة في جوانب كثيرة كالجانب الاجتماعي والفكري والسياسي والاقتصادي وتعتبر دراسة شاملة لهذه الجوانب التي أسسها نخبة من السلاطين المماليك في ذلك الوقت. وقد أفادتني هذه الأطروحة عن جوانب كثيرة، كالجانب الاجتماعي والفكري والسياسي والاقتصادي، وتعتبر دراسة شاملة لهذه الجوانب التي أسسها نخبة من السلاطين المماليك في ذلك الوقت والزمان.

٦- ومن الرسائل الجامعية غير المنشورة التي أفاد منها الباحث، سلوى، رشيد إسكندر، "التاريخ السياسي والعسكري للدولة المملوكية في عهد الظاهر بيبرس" (٦٥٨-٦٦٧هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م)، رسالة ماجستير (غير منشورة) جامعة دمشق، سوريا، ٢٠٠٩م، وتناولت هذه الدراسة الجوانب السياسية والاجتماعية التي كانت من أهم اهتمامات الدولة المملوكية في بداية نشأتها، وقد تطرقت إلى أدق التفاصيل في قيام الدولة

المملوكية بتنظيماتها العسكرية التي تعتبر هي الأساس في تثبيت أركـــان وقواعـــد هـــذه الرسالة.

هذا بالإضافة إلى العديد من المراجع العربية الحديثة والأجنبية المعربة؛ التي أفادتني في إعطاء صورة عن الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية آنذاك، منها كتاب "دولـــة بنـــي قلاوون في مصر الحالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في عهدها بوجه خـــاص" لمحمـــد جمال الدين سرور، وكتاب "العصر المملوكي في مصر والشام" لسعيد عبـــد الفتـــاح عاشـــور، وكتاب "نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر دراسة شاملة لنظم السياسة" لعبد المنعم ماجد، وكتاب "التاريخ السياسي لدولة سلاطين المماليك في مصر دراســـة تحليليـــة للازدهـــار والانهيار" لعبد المنعم ماجد، وكتاب "معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي" لمحمد أحمد دهمان، وقد أفادت الدراسة بتعريف الكثير من المصطلحات التاريخية السائدة في عصر المماليك البحرية، وكتاب "النظم الاقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوســـطى" لإبـــراهيم علـــي طرخان، فقد أفادني الحديث عن النظام الإقطاعي الذي كان سائداً في تلك الفترة وفـــتح الـــسبيل أمام العديد من المصادر التي أخذ منها مؤلف هذا الكتاب.

تمهيد: الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية خلال العصر المملــوكي الأول (٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٣٢م):

يعد عصر المماليك من أهم عصور مصر وبلاد الشام الإسلامية، سواء من حيث التاريخ السياسي أو من حيث الازدهار الحضاري، وعلى الرغم من أن سلاطين المماليك كانوا غربــاء لكنهم استطاعوا تحقيق السيادة والاستقلال للبلاد المصرية والشامية. تميــز عــصر ســلاطين المماليك بسمات حضارية معينة ميزته عن العصور التاريخية الأخرى، خاصــة منهــا علــى الصعيدين السياسي والاجتماعي، ويعود ذلك إلى الأصل الأجنبي للمماليك الذين يعدون من العبيد الغرباء عن دولة الإسلامي وعن حضارتها، وعن تقاليدها.

أولاً: أصل المماليك:

لا بد من التعرف على معنى كلمة مملوك، والمملوك جمع مماليك مشتق من الفعل العربي "ملك"[١] والمملوك من سبي وملك دون أبويه. إن هذا المعنى مأخوذ من القرآن الكــريم حيــث وردت عبارات "ملكت إيمانكم" و"ملكت إيمانهم" و"ملكت يديك"[٢] أكثر من مرة ثم أخذت هــذه الكلمة مدلولاً اصطلاحياً يقصد به جميع الرقيق الأبيض الذين يصبحون رقيقاً نتيجة الأســر أو الشراء من التجار[٣]، والملوك عكس العبد، فالعبد يولد من الرقيق، بينما المملوك يولد من أبوين حرين كما أن العبد أسود المملوك غالباً أبيض[٤].

شاع استخدام المماليك في بلاد العرب العالم الإسلامي في كثيــر مــن أرجــاء الدولــة الإسلامية نتيجة ضعف الدولة من جهة، ورغبتهم بالاستقلال عن الخلافة، وكثــرة المنازعــات والحروب فيما بينهم من جهة أخرى[٥]، وقد كانت القاهرة غنية بأسواق الرقيق[٦]، ولما انتقلــت السلطنة إلى الأيوبيين ٥٦٧هـ/١١٧١م ساروا على نفس الطريق الذي سار عليه أسلافهم مــن

---

(١) ابن منظور، جمال الدين محمد، لسان العرب، دار صادر، بيــروت، ١٩٧٧، ج١، ص٣٥٥، والعبــادي، أحمد مختار، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، بيروت ١٩٦٩، ص١١.

(٢) القرآن الكريم، سورة النساء، آيات (٣، ٢٤، ٢٥)، سورة النحل، آية ٧١.

(٣) عاشور، سعيد، العصر المملوكي في مصر والشام، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٩٤، ص٧.

(٤) ماجد، عبد المنعم، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، القاهرة، ١٩٨٢، ص٢٢، إســماعيل، شفيق، مرجع سابق، ص١٥.

(٥) عاشور، سعيد، العصر المملوكي، ص١.

(٦) المقريزي، أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار المعروف بالخطط المقريزية، بيروت، دار صــادر، ١٩٥٠، ج٢، ص٣٧٥، النباهين، علي سالم، نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك في مصر، دار الفكر، ط١، ١٩٨١، ص٩٣.

شراء المماليك، وبنوا لهم تكنات خاصة بهم[١]، والغالبية العظمى من المماليك من منطقة القبجاق[٢]، ثم أصبح يؤتى بهم من منطقة القفقاس[٣]. وهذا التحول من منطقة القبجاق إلى منطقة القفقاس كان له عدة أسباب اهمها:

- الحروب الداخلية بين أمراء القبجاق.
- تناقص عددهم نتيجة غزو تمور لهم.
- تناقص الشباب بسبب الاستيراد الكبير وبشكل مستمر إلى السلطنة الملوكية.
- زيادة نسبة عدد النساء نتيجة تناقص عدد اليافعين.
- فقدان أسر بكاملها نتيجة لحاقهم بالرجال.

ثم تشر المصادر إلى تاجر من تجار المماليك باسمه، إلا إذا جاء لمملوك كان له دور كبير في الدولة[٤] وأشهرهم فخر الدين بن عثمان بن مسافر تاجر السلطان برقوق[٥] وكان إذا وصل تاجر المماليك إلى القاهرة لقي أنواعاً من الحفاوة من السلطان، ويشير القلقشندي إلى مسامحة التجار الخواجكية بما يلزم من المكوس والمقررات السلطانية عن نظير ثمن ما يباع منهم من المماليك[٦]. وأيضاً لم تشير المصادر إلى أثمان المماليك سوى الذين ارتقوا في الجيش مثلاً قلاوون الألفي؛ لأنه دفع من ثمنه ألف دينار[٧].

بعد التعريف بالمماليك وبسبب تسميتهم، ومن أين جاؤوا لا بد من الانتقال إلى مرحلة أخرى من حياتهم، فمن المعروف أن العصر الذي أعقب وفاة صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م، شهد ازدياد أعداد المماليك في مصر والشام بصورة كبيرة، كما أن ورثته (أبناءه، إخوته، أبناء إخوته) اقتسموا فيما بينهم دولته الواسعة[٨]، ولم يلبث الشقاق والخلاف أن

---

[١] طقوش، محمد سهيل، تاريخ المماليك في مصر والشام، دار النفائس، ١٩٩٧، ج١، ص١٠.

[٢] القبجاق: منطقة السهوب جنوب روسيا.

[٣] عصام، المماليك والسلاطين في الشرق العربي معالم دورهم السياسي والحضاري، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٩٤، ص٧.

[٤] ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تقديم محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م، ط١، ج٦، ص٣٢.

[٥] السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ص١٠-١١.

[٦] القلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧، ج٤، ص١٣٨، المصدر السابق، ج٣، ص٣٨.

[٧] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣٢٥؛ القلشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٤٣٥.

[٨] الأصفهاني، المصدر السابق، ص٣٥٨، أبو شامة، شهاب الدين بن عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي، الروضتين في أخبار الدولتين النرية والصلاحية، تحقيق إبراهيم زيبق، ط١، ١٩٧٧، ج٣، ص٣٦٦.

دب بين ورثته، فقامت الحروب بينهم، فعمد كل أمير إلى أن يصنع قوة خاصة به، فأكثروا من شراء المماليك ويكونوا عصبية خاصة بهم، وأصبحوا قوة مسموعة، لكن يجب التنويه إلى أن هؤلاء المماليك ظلوا تحت سيطرة الأيوبيين، ولم يتمردوا عليهم في تلك المرحلة؛ لأن الأيوبيين كانوا أقويا ولكن عندما بدأ الضعف يدب بينهم، أخذ نفوذهم يزداد (حتى شكلوا دولاً[١]) أخذ المماليك بالاعتداء على أموال الناس[٢]، مع أنهم وقفوا موقفاً عظيماً في وجه الصليبيين والتتار، ولكن استيلاءهم على بيت المقدس سنة (٦٤٢هـ/١٢٤٤م) استثار الغرب فجهزوا حملة بقيادة لويس التاسع قاصداً مصر، فاستولى على دمياط سنة (٦٤٧هـ/١٢٤٩م)، في هذه الأثناء كان الصالح أيوب مريضاً، فذهب إلى المنصورة لينظم شؤون الدفاع، لكنه توفي (سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م) [٣]، كان للصالح أيوب ولد واحد هو تورانشاه، وكان نائباً له في حصن كيفا وهو شاب عديم الخبرة[٤]، لكن الظروف شاءت أن يخرج من بين حريمه امرأة قوية تمثلت بشجرة الدر التي تصرفت خلال وفاته تصرفاً حكيماً، فقد أخفت نبأ وفاته، وعملت على استدعاء تورانشاه، واستمرت المناشير تخرج من غرفته وعليها ختم السلطان، وبقيت الأوضاع كما لو كان حياً لكن رغم ذلك وصل نبأ وفاته إلى لويس الذي اتجه إلى المنصورة وهناك التقى الطرفان، واستطاع المماليك أن يحولوا انتصار الصليبيين إلى هزيمة، وأسروا أعداداً كبيرة منهم كان من بينهم لويس التاسع الذي قيد مكبلاً إلى المنصورة[٥] وصل تورانشاه إلى مصر ٦٤٨هـ/١٢٥٠م بعد موقعة المنصورة مباشرة، وأعلن نفسه سلطاناً، ولكنه لم يكن رجل الساعة وكان سيئ التدبير والسلوك، فبدلاً من الاعتراف بالجميل الذي قدمه المماليك له كرمهم حفظوا له السلطنة أخذ يعمل ضدهم. وتروي المصادر أنه كان يشرب الخمر ويضرب الشموع المصفوفة أمامه واحدة بعد الأخرى حتى تنقطع، وهو يردد هكذا سأفعل بالمماليك ويسمي كل واحد من المماليك باسمه[٦]. كما أنه اتهم زوج أبيه أنها أخفت ثروة والده، وقام بتوزيع

---

(١) عاشور، سعيد، العصر المماليكي، ص١١.

(٢) ابن منظور، المصدر السابق، ج١، ص٢٦٦.

(٣) كرد علي، محمد، خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، ١٩٨٣، ج٦، ص٨٩.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ص٣٦٤، حصن كيفا: مدينة من مدن الجزيرة الفراتية قائمة على الشاطئ الأيمن لنهر دجلة، للمزيد الحموي، ياقوت، البلدان، تحقيق فريد الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٤، ص٣٠٦.

(٥) الذهبي، الحفظ المؤرخ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٩٨، ص٤٩.

(٦) ابن العماد، شذرات الذهب، ص٤١٧؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ص٤٤٥.

الإقطاعات على أصحابه ممن جلبهم معه[1] حاول المماليك التخلص منه، وذلك بتحريض شجرة الدرر، فحاصروه في المدينة التي يقيم فيها، فالتجأ إلى كشك خشبي فأشعلوا فيه النـار، فـألقى بنفسه في النيل، وقد أشعلت النار في ثيابه ولاحقوه بالنشاب وصار يصرح لا أريد ملكاً، أريـد فقط الذهاب إلى كيفا، لكن أحداً لم يتجده فقتل جريحاً وغريقاً ومحترقاً، وتركت جثته في العراء ثلاثة أيام حتى شفع له رسول الخليفة العباسي، ووري في التراب، وبمقتل تورانشاه انتهى حكم الأيوبيين في مصر[2].

١ – المماليك البحرية وأهم ملوكهم[3]:

أصبح المماليك بعد مقتل تورانشاه أصحاب الحل والعقد كما وجد على الساحة الـسياسية الملوك الأيوبيين في الشام، وقد استاؤوا من إقدام المماليك على قتل أحد ملوكهم، ومن الطبيعـي أن يرى في نفسه شرعية حتى يلي السلطنة بعد تورانشاه، قرر المماليك حل المشكلة لصالحهم، فاختاروا شجر الدر لتولي السلطة، كانت شجر الدر جارية من أصل أرمني اشـتراها الـصالح أيوب فأعتقها ثم تزوجها، فهي من حيث الأصل والنشأة أقرب للمماليك، لذلك عدّها المقريـزي أولى سلاطين المماليك[4]، تولت السلطنة شجر الدر ٦٤٨هـــ/١٢٥٠م[5]، وكانـت المراسـيم تستخرج باسم المستعصمية الصالحية[6]، لم يكن يذكر اسمها أبداً بل كانت تنسب إلـى زوجهـا

(١) أبو الفداء، إسماعيل بن عمر، المختصر في أخبار البشر، دار الكتاب، بيروت، ج١، ج٣، ص١٨٠.

(٢) العمري، شهاب الدين أبي العباس أحمد بن علي، مسالك الأبصار في مسالك الأمصار، تحقيـق دورتينـا كرافولسكي، المركز الإسلامي للبحوث، ط١، ١٩٨٦، ص٥١؛ القرماني، أبو العباس أحمد حلبي الدمـشقي القرماني، أخبار الدول وآثار الأول، تحقيق محمد أمين، بغداد، ١٢٧٢هـ/، ص٦٥.

(٣) سمو بالبحرية فمنهم من يقول لأن الصالح أيوب اختار لهم جزيرة الروضة عند النيل، ومنهم من يقـول إن تلك التسمية مصدرها أن أولئك كانوا يجلبون عن طريق البحر.

(٤) المقريزي، السلوك، ج١، ص٣٦١.

(٥) هناك ثلاثة آراء تتعلق بنهاية الدولة الأيوبية في مصر وبداية دولة المماليك البحرية الأولى، يرى أصحاب هذا الرأي أن تورانشاه وآخر الملوك الأيوبيين وشجر الدر هي أولى سلاطين المماليك. المقريزي، السلوك، ج١، ص٣٦١؛ النويري، المصدر نفسه، ج٢٩، ص٣٩٢، والثاني يرى أن شجر الدر هي آخـر سـلاطين الأيوبيين باعتبارها زوجة الصالح أيوب. المنصوري، بيبرس، التحفة المملوكية في الدولة التركية، نـشره عبد الحميد صالح حمدان، الدار العربية، القاهرة، ط١، د.ت؛ العيني، المصدر السابق، ج١، ص٣٤؛ ابـن إياس، المصدر السابق، ج١، ق١، ص٢٨٦؛ والثالث يرى أن الملك الأشرف موسى الذي نصبه أيبك هـو آخر الأيوبيين (الأشرف هو موسى بن يوسف بن مسعود بن الكامل) عاش والده في كنف الـصالح أيـوب حتى توفي. المقريزي، السلوك، ج١، ص٣٦٩.

(٦) المقريزي، السلوك، ج١، ص٣٦٢؛ حتي، فيليب جورجي، تاريخ العرب، دار الغندور، بيروت، ط١٩٩٠، ص٣٦.

وابنها، لكن الأمراء في دمشق لم يعترفوا بها، والخليفة العباسي أرسل كتاباً إلى مصر كتب عليه عبارته المشهورة: "إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نبعث إليكم رجلاً"[1].

هذه الأمور مجتمعة دفعت شجرة الدر إلى خلع نفسها والزواج من أيبك أحد المماليك الصالحية.

كان أيبك[2] من مماليك الصالح؛ أتابك الجيش[3]، لم يكن حكمه مستقراً، فقد واجه مجموعة من الأخطار الداخلية والخارجية، فالأيوبيون في الشام، والبحرية الذين عز عليهم أن يستلم السلطنة من غير البحرية، فعملوا على الكيد له، لكن وصول خطر التتار أدى إلى وقوفهم معه، كما اعترف الخليفة العباسي بشرعية أيبك حيث جعل مصر وفلسطين لأيبك وبقية بلاد الشام للأيوبيين[4].

لم يلبث أيبك أن سئم الحياة مع زوجه، وخشي على نفسه من غدرها وتفاقمت الخلافات بينهما مع مرور الوقت خاصة عندما علمت أن زوجها عزم على الزواج من ابنة الأتابك بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل[5]. شكلت هذه القضية بداية النهاية لعهد أيبك. كانت شجرة الدر لا تزال تحظى بعطف المماليك فأخذت تكاتبهم، وعلم أيبك بذلك، فعزم على التخلص منها، لكنها كانت السباقة، فأرسلت تستلطفه وتسترضيه فخُدع أيبك بكلامها، وحضر إليها ومكث عندها، وعندما دخل الحمام قام خمسة من الغلمان عليه فقتلوه، فأشاعت أن المعز أيبك مات فجأة في الحمام أثنا الليل[6]. عندما شاع الخبر حاول المماليك المعزية قتل شجرة الدر لكن البحرية أنقذوها غير أن زوج أيبك الأولى (أم علي) أخذت تحرض على قتلها وأمرت جواريها بقتلها وضربها بالقباقيب إلى أن ماتت، ثم ألقيت جثتها من سور القلعة إلى الخندق وهي شبه عارية، وبقيت في الخندق ثلاثة أيام قبل أن تدفن[7]. على هذا الشكل المحزن انتهت حياة كل من أيبك

---

(1) ابن إياس، المصدر السابق، ص٣٧٤، المقريزي، السلوك، ص٣٦٣.

(2) أيبك كان تركيا: أي = قمر + بك = أمير، أيبك هو السلطان المعز عز الدين أيبك الجاشنكير التركي الصالحاني، للمزيد ابن إياس: المصدر السابق، ص٢٨٩.

(3) أتابك: كلمة تركية مؤلفة من مقطعين أتابك تعني الأب، بك الأمير ومعناها أصبح قائد الجيش.

(4) سليم، محمود رزق، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مصر، ط٢، ١٩٨٢، ص٢٣.

(5) المنصوري، المصدر السابق، ص٣٩، النويري، المصدر السابق، ج٢٩، ص٤٥٦، العيني، المصدر السابق، ج١، ص١٤٠.

(6) ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج٦، ص٣٧٥.

(7) العبادي، المرجع السابق، ص١٤٠.

وشجرة الدر، (٦٥٨هـ/١٢٦٠م)، ومن أهم الأعمال العسكرية في مرحلة المماليك البحرية معركة عين جالوت[١].

وفيها انتصر المماليك بقيادة قطز[٢] على التتار ودخلوا دمشق، واستولى قطز على سائر البلاد من الفرات إلى حدود النيل، واستناب نوابه على دمشق وحلب وحماة والساحل وغزة. وموقعة عين جالوت وصفها أبو الفداء قائلاً: "تضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم، فإن القلوب قد يئست من النصر على التتار لاستيلائهم على معظم بلاد الشام، ما قصدوا إقليماً إلا فتحوه ولا عسكر إلا هزموه"[٣]، كما أعادوا إحياء الخلافة العباسية ليضفوا على حكمهم الشرعية وذلك عندما قام بيبرس باستدعاء أحد أبناء العباسيين سنة (٦٥٩هـ/١٢٦٠م)، وعقد مجلساً حافلاً أثبت فيه نسبه وأعلنه خليفة، ولكن بلا خلافة حقيقية، فلم يكن له ولا لمن جاء بعده أي دور يذكر[٤].

كان للمماليك البحرية نشاط ملحوظ في البحر المتوسط حيث تم في عهد الناصر فتح جزيرة (أرواد سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م) كما انتصروا في العام نفسه في وقعة شقجب على التتار[٥]، وفي داخل البلاد أخدمت ثورات العربان في صعيد مصر، وأخضع ملوك النوبة المسيحية لشمال السودان[٦].

سأكتفي بهذا العرض عن المماليك البحرية؛ لأني أردت فقط إعطاء صورة واضحة عن البحرية، وليس الخوض في تفاصيلها.

٢- المماليك البرجية وأهم ملوكهم:

أراد السلطان المنصور قلاوون أن يكون فرقة جديدة من المماليك، يعتمد عليها ضد منافسيه من كبار الأمراء، وتكون مسنداً له ولأولاده وذريته في الاحتفاظ بالعرش، ومن أجل تحقيق ذلك رأى قلاوون أن تكون فرقته الجديدة من جنس غير الأجناس التي انتمى إليها مماليك عصره، فأعرض عن شراء الأتراك والتتار والتركمان، وأقبل على شراء الجراكسة الذين ينتمون إلى بلاد الكرج (جورجيا) واعتنى بتربيتهم في أبراج القلعة، مما جعل اسم "البرجية"

---

[١] عين جالوت: بلدة لطيفة في بيسان من أعمال فلسطين، للمزيد الحموي: المصدر السابق، ص٢٠٠.

[٢] للمزيد ابن إياس، المصدر السابق، ص٣١٣.

[٣] أبو الفداء، المصدر السابق، ص٤٤.

[٤] المصدر نفسه، ص٤٤.

[٥] المطوي، محمد العروسي، السلطنة الحقيقية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦، ص١٩٤. للمزيد، ابن كثير، المصدر السابق، ص١١، الناصر هو الناصر محمد بن قلاوون، للمزيد، ابن إياس، مصدر سابق، ص٣٧٨.

[٦] سلام، محمد زغول، الأدب في العصر المملوكي في مصر، دار المعارف، ١٩٧٨، ج١، ص٢٥.

يلصق بهم في التاريخ[1]، وقد تحقق الغرض منها، فكانت سنداً له ولأولاده، لكـن بعـد وفـاة المنصور قلاوون أخذ يزداد نفوذ البرجية كثيراً؛ لأن قلاوون فرض عليهم فـي زمانـه قيـوداً استطاع من خلالها الحد من نفوذهم حيث منعهم من التجوال نهاراً، بينما خلفاؤه لم يكونوا بمثل قوته، فسمحوا لهم بالنزول إلى الشارع أثناء النهار، وسمحوا لهم التعرف على وقـائع الحيـاة اليومية والمشكلات[2]. لا شك أن إسراف السلطان المنصور قـلاوون فـي معاملـة المماليـك الجراكسة وتميزه في المساواة بينهم وبين المماليك القدامى، فكان له أثره في إثارة روح البغضاء والتنافر بين الطرفين، وتطور إلى نزاع بين الجراكسة والأتراك، وتطـورت مناصـبهم حتـى وصل أحدهم وهو الأمير برقوق الذي استطاع بفضل طموحه وقوته أن يصل إلى منصب أتابك العسكر سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م، الذي لم يتجاوز ٧٨٣هـ-١٣٧٦ في عهد السلطان علاء الـدين علي الست سنوات، بعد وفاته كان بإمكان برقوق استلام العرش، لكنه تظاهر بالزهـد، فجمـع الخليفة والقضاة، وكبار الأمراء، وقال بضرورة بقاء العرش في بيت قلاوون، فاستدعى أميـر حاجي حفيد الناصر محمد، وكان عمره وقتذاك إحدى عـشرة سـنة، وأعلـن سـلطاناً سـنة ٧٨٣هـ/١٣٨١م، أخذ برقوق يمكن لنفسه، ويوزع الإقطاعات على أعوانـه، ويـتخلص مـن معارضيه، وعندما تهيأت الأوضاع أعلن حاجة البلاد إلى رجل قوي فأعلن الأمـراء برقـوق سلطاناً، وتلقب بلقب الظاهر، وعزل أمير حاجي من السلطنة.

هكذا انتهى بيت قلاوون كما انتهى حكم المماليك البحرية، وبقيام الظاهر برقوق بـالحكم ٧٨٤هـ/١٣٨٢م، بدأت دولة المماليك البرجية[3].

قامت دولة المماليك البحرية على أسس خالفت الأسس التي قامت عليها دولـة المماليـك البرجية، وإن اشتركت معها في بعض اتجاهاتها، ويتضح ذلك من الحقائق التالية:

- تميزت دولة المماليك البرجية بأن سلاطينها جميعاً من أصل جركسي باستثناء اثنين كانـا من أصل يوناني هما خشقدم وتمريغا، ومعنى ذلك أن أحكام هذه الدولة اتخذوا العـصبية العنصرية سلاحاً لإزالة دولة المماليك البحرية[4].
- جعل العرش المملوكي مشاعاً بين القادرين من أمراء المماليك.

---

[1] المقريزي، السلوك، ج١، ص٧٥٥، قاسم، علي، الأيوبيين والمماليـك، العـين للدراسـات، ط٢، ١٩٩٦، ص٢٠٣.

[2] علي، قاسم، المرجع نفسه، ص٢٠٥.

[3] زيتون، عادل، تاريخ المماليك، منشورات دمشق، ط٥، ١٩٩٦، ص٧٠.

[4] ابن تغري بردي، النجوم الزاهية، ج١٦، ص٢٥٣، اعتلى الملك الظاهر خـشقدم عـرش الـسلطنة سـنة ٨٦٥هـ وهو الأول من الأورام بعد أن تسلطن من الجراكسة وأولادهم ثلاثة عشر سلطاناً، وقد حكم سـت سنين وست أشهر واثنين وعشرين يوماً مات سنة ٨٧٢هـ، أما تمريغا فقد تولى الحكم سنة ٨٧٢هـ.

- تدبير المؤامرات، وإحداث الفتن للوصول إلى الحكم[١].
- عمل سلاطين المماليك البرجية على حصر هذه المنازعات في دائرة داخلية ضيقة لم يمكنوا قوة خارجية من التدخل في شؤون البلاد.
- عنايتهم بالأدب والعلم.
- عدم الالتفات إلى رغبات السكان في شؤون السلطنة من حيث إخبار السلطان وتعيينه[٢].
- ضرورة الحصول على موافقة الخليفة والقضاء على تعيين السلطان لتسويغ الأسلوب الذي سلكه لتحقيق هدفه في الوصول إلى الحكم. أيضاً بالنسبة للمماليك البرجية اكتفى بهذا العرض عن نشوئهم وميزاتهم، أما بالنسبة لملوكهم فقد قمت بعرضهم مع سنة توليتهم السلطنة والانتهاء منها بلغ عدد سلاطين هذه الدولة المملوكية خمس وعشرين سلطاناً، وبلغ عمرها نحو ١٣٤ سنة، على حين عمرت الدولة البحرية ١٣٢ سنة. فالدولتان متقاربتان في العصر الزمني، ولكل منها تراثه وآثاره.

ثانياً: موظفو البلاط المملوكي:

- السلطان: صاحب أعلى سلطة، وكان يلقب بألقاب عدة[٣]، وهو دائماً على رأس الجيش الذاهب للحرب[٤].
- نائب السلطنة: السلطان الثاني في الدولة، صلاحياته واسعة، وبإمكانه أن يستخدم الجند دون مشورة السلطان ويستطيع إصدار المراسيم، وقد تعرض هذا المنصب للتقهقر عندما استلم الناصر محمد بن قلاوون[٥]. أما النواب في الأقاليم فكانوا يملكون صلاحيات واسعة، ويشرفون على شؤون الجيش والمال والبريد، ويعرضون على السلطان من يصلح في الوزارة والقضاء والجيش ... الخ، وكلما رفض السلطان عرضهم[٦].

---

(١) عاشور، العصر المماليكي، ص١٥٣.

(٢) طرخان، إبراهيم علي، مصر في دولة المماليك الجراكسة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٠، ص١٣.

(٣) هذه الألقاب منها ذات طابع ديني أو سياسي، هدفت إلى تمجيده وتأكيد سلطاته منها سلطان الإسلام والمسلمين، ناصر الأمة المحمدية، هازم الفرنج، هذا إضافة إلى الألقاب الشخصية مثل الناصر – الظاهر.. الخ، للمزيد، العمري، مصدر سابق، ص٤٥ وما بعد؛ الخطيب، إبراهيم، تاريخ آل مغول والمماليك، دار شيري، عمان، ١٩٩٣، ص٩٧.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٦، ص٣٥.

(٥) العمري، مصدر سابق، ص١٦؛ حمادة، محمد ماهر، الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكين مؤسسة البيان، ١٩٨٣، ص٢٩.

(٦) العمري، المصدر نفسه، ص١١٥.

- الوزارة: هي المرتبة الثالثة مهمتها تدبير جملة من الأمور، وتعيين المباشرين، وكتاب السر، والتوقيع في دار العدل، لكن عليهم مشورة السلطان وعدم الاستقلال بشيء[١].
- إمرة السلاح: صاحبها مهمته حمل السلاح في المجاميع الجامعة[٢].
- الداودارية: ماسك الدواة، مهمته تبليغ الرسائل من السلطان، والإبلاغ عن عامة الأمور وتقديم البريد، وأخذ خط السلطان على عموم المناشير والكتب[٣].
- الاستاذدار: يوكل إليه أمر جميع البيوت الخاصة بالسلطان كلها.
- إمرة جاندار: صاحبها كالمستلم الباب، وهو يقدم البريد، وإذا أراد السلطان قتل أحد كان على يد صاحب هذه الوظيفة[٤].
- نقابة الجيوش: يكون كأحد الحجاب الصغار، فإذا طلب السلطان أو النائب أو الحاجب أميراً كانت مهمته أن يرسل إليه ويحضره.
- الولاة: أصحابها هم أصحاب الشرطة[٥]، وجميع أصحاب هذه الوظائف هم أصحاب الطبقات أو ذوي السيوف الذين يتولوها[٦].
- كاتب السر: أي قراءة الكتب الواردة إلى السلطان، أو كتابة أجوبتها، وأخذ خط السلطان عليها بدار العدل لقراءة قصص الناس، أو التوقيع عليها.

وهناك وظائف أخرى هي القضاء، الخطابة، ووكالة بيت المال، والحسبة، وهذه الوظائف معروفة ويتولاها الناس من الطبقة الثالثة من طبقات المجتمع (ذوي العلم) [٧].

ثالثاً: الحياة الاقتصادية:

كانت الأوضاع الاقتصادية تتغير بين الحين والآخر، خاصة في النصف الأول سمن القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، حيث أصاب البلاد انهيار إداري، واقتصادي، ومن أهم أسبابه الرشوة وارتفاع الأسعار واضطراب النقد[٨].

---

(١) العمري، مصدر سابق، ص١١٩.
(٢) المصدر نفسه، ص١١٨.
(٣) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، حسن المحاضرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ص١٣٢.
(٤) العمري، مصدر سابق، ص١١٨.
(٥) العمري، مصدر سابق، ص١١٤.
(٦) المصدر نفسه، ص١٢٠.
(٧) المصدر نفسه، ص١٢٢.
(٨) المقريزي، أحمد بن علي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، تعليق ياسر سيد الصالحين، مكتبة الآداب، القاهرة، د.ت، ١٩٦٧، ص٦٤.

- **الزراعة:**

اهتم السلاطين بالزراعة باعتبارها أساس الحياة الاقتصادية، فاعتنوا بها وأقاموا لأجلها الإصلاحات العديدة من بناء سدود وجسور[١]، وقد ازدهرت الزراعة لأسباب بشرية واقتصادية.

إن قوام الحياة الاقتصادية الزراعية، والدارس في هذا المجال يجد أن الدولة هي الممالك الأكبر وعلى عاتقها تقع مسؤولية فتح القنوات، واستصلاح الأراضي وبناء الجسور ... الخ[٢].

- **الصناعة:**

ازدهرت الصناعة في العصر المملوكي نتيجة كثرة الثروات، وتفنن الصناع في الصناعة والاهتمام بالسلع، وعرضها في الأسواق، وبيعها بأسعار جيدة، وبما أن الدولة المملوكية أساساً دولة عسكرية، فقد واجهت تحديات خارجية خطيرة لذلك اهتم المماليك بالصناعات العسكرية والحربية[٣].

- **التجارة:**

كانت التجارة من أهم المظاهر الأساسية للنشاط الاقتصادي المملوكي، وقد ساعد على ذلك عدة عوامل:

- المكان الجغرافي الذي كانت تحتله دولة المماليك في مصر والشام، وهذا ما أكسبها الثروة والغنى.
- إغلاق معظم طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب منذ القرن السابع الهجري والثالث عشر الميلادي.
- انعدام الأمن والسلام في تلك الطرق.
- إنشاء المؤسسات اللازمة للتجارة، والفنادق، والخانات، والأسواق[٤].

رابعاً: الحياة الاجتماعية:

كانت بنية المجتمع المملوكي طبقية، تتألف من عدة طبقات اختلفت طبقاتها في الصفات، والخصائص، والمظاهر، كما اختلفت مكانتها في الدولة والمجتمع وما لها من حقوق وما عليها من واجبات، واختلاف الرابطة كان واضحاً بين الشام ومصر من حيث الدم والجنس والأصل

---

(١) المقريزي، ألخطط، ج٢، ص١٦٦.

(٢) زعرور، إبراهيم، الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصر الأيوبي والمملوكي، مطبعة الجمهورية، دمشق، ١٩٩٣، ص٢٠١.

(٣) الزيدي، مفيد، التاريخ الإسلامي (العصر المملوكي)، دار أسامة، عمان، ٢٠٠٣، ص٢٣٤.

(٤) زيتون، عادل، تاريخ المماليك، منشورات دمشق، ط١٩٩٦، ص١٩٣.

وحتى اللون، وهذا ما أشعر في حالات كثيرة المماليك أنهم غرباء عن المجتمع أو لا تربطهم به رابطة قوية، ولم تربطهم به رابطة زواج[١].

وقد قسم المجتمع إلى خمس طبقات:

أ- السلطان والمماليك على رأس السلم الاجتماعي، وهم أرباب السيوف، وأصحاب المناصب الهامة. ب- أرباب الأقلام. ج- العلماء في حقوقهم القضاء، والخطباء. د- التجار. هـ. سائر الناس[٢].

أما التجار فكانت تتراوح أحوالهم بين حين وآخر حسب ثروتهم، فأحياناً كانوا طبقة مقربة من السلطان، لأنهم المصدر الذي يمده بالمال وأحياناً كانت أموالهم تصادر.

وقد عرف المماليك كثرة الأعياد والاحتفالات، وشارك المسلمون والمسيحيون في إحيائها. وهو نج سار فيه المماليك على خطى الأيوبيين في العناية بالأعياد والمناسبات والمواسم.

الحركة العلمية:

نشطت الحركة العلمية في دمشق أيام دولة المماليك في القرون الثلاثة التي عاشت فيها هذه الدولة، فأوجدت المدارس والخوانق، وكان هذا النشاط في معظمه يحدث على يد سلاطين المماليك الذين شجعوا الحركة العلمية، وهذا ما يظهر من خلال كثرة المدارس والمساجد المشيدة.

أهم عوامل نشاط الحركة العلمية آنذاك:

١- وقوع كثير من البلاد الإسلامية في يد التتار، فكان لا بد للمسلمين أن يتلفوا حول المدافعين عنهم كسلاطين المماليك، وأن يدعموا حكمهم، ومن أهم وسائل تدعيم الملك هي إحياء العلوم والمعارف[٣].

٢- قتل العلماء وإحراق الكتب العلمية، فبعد دخول التتار ببغداد (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) ثم قتل وسفك الدماء وإحراق دار الخلافة، مما أدى إلى فرار كثير من العلماء إلى أماكن آمنة.

٣- شعور سلاطين المماليك وولاتهم بمسؤوليتهم عن النهوض بالعلم والعلماء الذين قاموا بالعمل الجاد لإدراك ما فات[٤].

---

(١) العمري، المصدر السابق، ص١١٤.

(٢) كيال، منير، رمضان وتقاليده بدمشق، دمشق، ١٩٧٨، ص١١٥.

(٣) سليم، محمد رزق، مرجع سابق، ص١٧.

(٤) المرجع نفسه، ص١٥.

٤- كانت جموع العلماء من الأدباء الذين جاءوا الشام حاملين معهم كتبهم وعلمهم[١].

٥- اهتمام السلاطين باللغة العربية، وذلك لعجز لغتهم التركية أو الجركسية عن أداء ما يتطلبه ملكهم الواسع في المجالات المختلفة[٢].

انهيار دولة المماليك:

لم يشهد التاريخ منذ القدم بقاء دولة ما على حال واحدة من العزة والرفعة وإنما تخضع الدول لسنة الطبيعة ما بين نشأة وشباب ثم الانتقال تدريجياً إلى مرحلة الشيخوخة، فتتحول فيها قوة الدولة إلى ضعف، وتدب في جسدها الأمراض التي تمهد لسقوطها، وللدولة المملوكية بعض مظاهر التدهور التي أدت إلى أفول العصر المملوكي، وتعود أسباب هذا التدهور إلى عوامل داخلية وأخرى خارجية.

العوامل الداخلية:

أ- تراجع زعامة المماليك في العالم الإسلامي حيث لم يعودوا قادرين على حماية أرواح المسلمين وممتلكاتهم، وعدم قدرتهم على حماية الدين نفسه والمدن الإسلامية المقدسة، وعدم ضمان سلامة الحجاج[٣].

ب- الانحلال الاجتماعي والتسول في مصر والشام الذي انتشر بشكل كبير، وفقدان الموارد الغذائية[٤].

ج- مظاهر البذخ التي عاشها الحكام والتي شكلت تحدياً صارخً للفقراء[٥].

د- فساد النظام الإداري وفساد النظام الإقطاعي، إضافة إلى التدهور الاقتصادي[٦]، بحيث شكل العامل الاقتصادي دعامة أساسية استندت إليها الدولة المملوكي في قيامها واستمرارها، فإذا دخل الضعف إلى هذه الدعامة كان ذلك نذيراً بتداعي الدولة وانهيارها.

ه- انحلال النظام الداخلي، وإهمال الأسس التي قامت عليها دولة المماليك وكثرة الصادرات وفرض الضرائب بكثرة[٧].

---

(١) سلام، محمد زغلول، المرجع السابق، ص١٠٦.

(٢) المقريزي، الخطط، ط، ج٢، ص٣٨٢.

(٣) إيفانوف (نيقولاي)، الفتح العثماني للأقطار العربية، ترجمة يوسف عطا الله، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٨، ص٣٩.

(٤) المرجع السابق، ص٤١.

(٥) طفوش، المرجع السابق، ص٥٦.

(٦) عاشور، سعيد، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، بيروت، ١٩٧٧، ص٣٥١.

(٧) طفوش، المرجع السابق، ص٥٦٤.

العوامل الخارجية:

تعد العوامل الخارجية من الأسباب التي أدت إلى ضعف وانهيار دولـــة المماليـــك، بـــل ساعدت العوامل الداخلية السالفة الذكر في إضعاف وحدة الدولة أمام العدو الخارجي وعلاقـــات الشرق والغرب منذ أواسط القرن الخامس عشر الميلادي، وظلت الروح الصليبية قائمة متجددة وعدو رئيس للمسلمين.

انطلقت حملات عسكرية صليبية لمواجهة المسلمين، قادها البرتغاليون الـــذين اســـتجابوا لنداء البابوية، ونظموا حملات ضد شمالي إفريقيـــة، ووصـــلوا رأس الرجـــاء الـــصالح ســـنة ٩٠٤هــ/١٤٩٨م ووصلوا الهند، وسيطروا على التجارة الشرقية ووجهت البرتغال ضربة قوية للتجارة المملوكية مع الهند. كانت هذه كارثة على الدولة المملوكية التي قضى عليها البرتغاليون من حيث الثروة والقوة العسكرية، ونجحوا في إنهاء السيطرة المملوكية على الميـــاه والتجـــارة الشرقية منذ مطلع القرن السادس عشر الميلادي، ثم إن تدهور الوضـــع الاقتـــصادي، وفقـــدان الموارد الحيوية الأساسية زعزع قوة ومكانة الدولة، كما جاءت الضربة القويـــة علـــى أيـــدي العثمانيين في عهد السلطان سليم الأول الذي أنهى مكانة المماليك في "مرج دابق"، وقضى على دولتهم المستقلة في الريدانية، وورث ممتلكاتهم وألقابهم ليصبح حامي الإســـلام والمـــسلمين[١]. هكذا كانت دولة المماليك من الدول المهمة في العصور الوسطى لذلك فإن نشوء هذه الدولة أمر عجيب يكاد أن يكون فريداً في بابه، فالمماليك دولة من جنسيات وقوميات مختلفة جعلوا أنفسهم طبقة عسكرية حاكمة في بلاد غربية، وقد أفلح هؤلاء في التصدي للصليبيين وصدوا إلى الأبـــد تقدم جيوش المغول، ولولا المماليك لكانت هذه الجيوش قد غيرت مجرى التاريخ والثقافة فـــي غربي آسيا ومصر. وبذلك وفرت هذه الدولة ومهدت للبلاد سبيل النعيم بثقافة متصلة وأنظمـــة سياسية مستمرة.

سيطر المماليك على الحكم نحو مئتين وسبعين سنة من ٦٤٨هـــــ/١٢٥٠م حتـــى ســـنة ٩٢٣هــ/١٥١٧م على بقعة كانت من أكثر البقاع فتناً واضطراباً، وحافظوا طول تلـــك الفتـــرة على ميزاتهم الجنسية مع أنهم كانوا بوجه عام قساة دون ثقافة، وأعمالهم في مصر والشام مـــا تزال تشهد لهم، فكثرت المساجد والمدارس والحمامات التي بنودها ما زالت خالدة تـــشهد لهـــم بالتطور العمراني والثقافي الذي وصلوا إليه رغم أنهم كانوا رجال حرب بالدرجة الأولى.

---

(١) سوفاجيه، جان، دمشق الشام، تعريب فؤاد أفرم البستانين تحقيـــق أكـــرم العلبـــي، ط١، ١٩٨٩، ص٨٨، المرجع السابق، ص٨٦، رافق، المرجع السابق، ص٢٠، طفوش، المرجع الـــسابق، ص٥٦٠، ايفـــانوف، المرجع السابق، ص٣١، فهمي، نعيم زكي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغـــرب أواخـــر العصور الوسطى، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣، ص٣٧١.

الفصل الأول

دور المرأة في الحياة السياسية في العصر المملوكي الأول

لم تكن بعض النساء بمعزل عن الحياة السياسية في هذا العصر، فقد نالت بعضه حظهـا في شؤون الدولة السياسية، ويرجع ذلك إلى تكريمها والثقة بها، وإلى قوة شخصيتها ونفوذها.

أسهمت المرأة في الحياة العامة بمصر والشام في عصر دولة المماليك وهـو بـلا شـك نصيب كبير وحسبنا أن نشير أن السخاوي أفرد جزءاً كاملاً من كتابه "الضوء اللامع" ذكر فيها ما يزيد عن الألف ترجمة كلها لنساء توفين في القرن التاسع الهجري ولمعظمهن نصيب كبيـر في الحياة العامة في ذلك القرن[١].

لقد كان للنساء دور ظاهر في الحياة السياسية في العصر المملوكي الأول، ولا أدل علـى ذلك من حادثة تعيين شجر الدر زوجة الملك الصالح أيوب ملكة على مصر، لأن تعيين امـرأة ملكة على مصر، لأن تعيين امرأة ملكة لا بد أن يكون سبقه بالضرورة أدوار من تـدخلها فـي شؤون السياسة والحكم بشكل ظاهر معروف مألوف، تعاظم شيئاً فشيئاً وتطور فترة بعد أخرى حتى بلغت مكانة سوغت للعساكر المماليك أن يقلدوها الملك والسلطان خلفاً للسلطان المقتول.

أولاً: أمهات وزوجات السلاطين:

أولاً : شجر الدر:

وتسمى بالجمع شجر الدر بدون التاء[٢]، واختلف المؤرخون حول اسمها الصحيح وفيما إذا كان شجر الدر أم شجر الدر، والأغلب أن الأول هو الصحيح لإجمـاع معظـم المـصادر عليه[٣]، وهي الملكة الملقبة عصمة الدين، أم خليل، شجر الدر بنت عبد الله[٤]، مملوكة تركيـة،

---

(١) السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢.

(2) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢ج٣، ص١٩٢؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملـوك، ج١، ص459؛ ابـن تغري برد، مورد اللطافة، ج٢، ص٢١؛ ولم يرد فيما وقع بين يدي الباحثة في الكتب الثلاثة المذكورة اسم شجر الدر بالتاء، وكل ما ورد فيها شجر الدر بجمع شجر، ولكن ورد في كتب أخرى شجر بالتاء، وقـال الزركلي في الأعلام:" ويسميها سبط ابن الجوزي شجر الدر"؛ الزركلي، الأعلام، ج٣، ص١٥٨.

(3) محمود، شفيق ياسر أحمد، المماليك البحرية وقضاؤهم على الصليبيين في الشام، مجلة الجامعـة الإسـلامية بالمدينة المنورة، السنة الحادية والعشرون، العدد الواحد والثمانون، الجامعة الإسلامية بالمدينـة المنـورة، ١٤٠٩هـ، ص١١٥.

(4) ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير، (٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)، البداية والنهاية، دار هجـر للطباعـة والنـشر والتوزيع، ١٤١٩ هـ، ١٩٩٨ م، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، ١ج٧، ص٣٥٢.

وقيل أرمنية، اشتراها الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان يحبها كثيراً ولا يطيق فراقها سفراً ولا حضراً، وولدت منه ابنا اسمه خليل، الذي مات وهو صغير، ولما مات الملك الصالح أيوب تولى بعده ابنه توران شاه، فلما أراد بشجر الدر شرا أمرت العساكر أن يقتلوه، واتفق العساكر وأمراء المماليك على توليتها ملكَ مصر، وهي أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك[١].

فلما تولت السلطنة شجر الدر، ووصل الخبر إلى بغداد عاصمة الخلافة العباسية، بعث الخليفة المستعصم بالله من بغداد كتاباً إلى مصر، وهو ينكر على الأمراء ويقول لهم: "إن كانت الرجال قد عدمت عندكم، فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً"[٢]، فخلعت شجر الدر نفسها بعد ثلاثة أشهر[٣]، وتولى السلطنة المعز لدين الله أيبك، فتزوج شجر الدر ثم بعد خمسة أيام اتفق الأمراء الأيوبيون على تولية موسى الأشرف بن يوسف على مصر، وهو من الأيوبيين الأكراد[٤]، ثم أعاد الكرة عز الدين أيبك بعد أن مكن لنفسه أكثر وخلع موسى الأشرف، وتولى السلطة[٥].

ثم في سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م زادت الخلافات بين المعز أيبك وشجر الدر لتدخلها بشؤون الحكم، وكان له منجِّم أخبره أنه سيقتل بسبب امرأة، فوقر في قلبه أنها شجر الدر فحدثته نفسه بقتلها، وزاد الخلاف بينه وبين شجر الدر أنه بعث إلى أحد الأمراء يريد أن يخطب ابنته، فلما علمت شجر الدر قررت قتله، فأرسلت بهدية إلى الملك الأيوبي الناصر يوسف[٦]، وأعلمته أنها قد عزمت على قتل المعز أيبك وأنها جاهزة للزواج منه وتمليكه على مصر، ولكن الملك الناصر لم يجبها بشيء[٧].

ووصل خبر هذه المراسلة إلى السلطان المعز أيبك فقرر إخراجها من قلعته، ولكن شجر الدر كانت قوية وحازمة، فأعدت لقتله وأحضرت خمسة رجال ليقتلوه، عرف المؤرخون ثلاثة منهم[٨]، دخلوا عليه وهو يستحم ليلا وقتلوه، ويروى أنها شاركت في قتله وبقيت تضربه

---

(1) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٤٥٩.

(2) المصدر نفسه، ج١، ص٤٦٣-٤٦٤.

(3) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٧، ص٣٤٧.

(4) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص١٩٨.

(5) العصامي، سمط النجوم العوالي، ج٤، ص١٩.

(6) الملك الناصر: هو السلطان الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، صاحب حلب ودمشق، تملك سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م، (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢ج٣، ص٢٠٤.

(7) المقريزي، السلوك، ج١، ص٤٩٣.

(8) منهم محسن الجوجري، وخادم يعرف بنصر العزيزي، ومملوك يسمى سنجر؛ المقريزي، السلوك، ج١، ص٤٩٣.

بالقبقاب حتى مات[1]، فلما شاع خبر موته قُبض على الخدام والحريم وعوقبوا حتى اعترفوا بما حصل ولوحقت شجر الدر حتى قبض عليها، فأُمرن الخادمات بضربها بالقباقيب حتى ماتت، ثم ألقيت من برج القلعة مكشوفة العورة إلى مزبلة، وتركت أياما حتى أنتن جثمانها، ويروى أنها من قوة شخصيتها أنها لما علمت بانكشاف أمرها أتلفت معظم جواهرها وحليها[2].

ولا ننسى ما كان لها من دور اجتماعي لخصه ابن تغري بردي بكلام بليغ فقال: "وكانت خيرة دينة رئيسة عظيمة في النفوس، ولها مآثر وأوقاف على وجوه البر معروفة بها"[3]، ولا شك أن ذلك جعل لها مكانة في نفوس الناس عامة وفي نفوس المماليك خاصة.

وقد كانت شجر الدر في حياة زوجها الملك الصالح أيوب تدير معظم شؤون الديار المصرية في حياته، وكانت كاتبة وفي مرضه وبعد موته، والأمور تدبرها على أكمل وجه[4]، حيث إنها لما مات زوجها الملك الصالح -وكانت الحرب بين المسلمين والصليبيين مشتعلة- أخفت نبأ موته عن الجميع، وكانت تدعي أنه مريض فحسب، وكانت ترسل الرسائل إلى الأمراء والعساكر بخط يشبه خط زوجها السلطان قيل إنه خطها وقيل خط خادمها[5]، وجمعت الأمراء وقالت لهم: "السلطان يأمركم أن تحلفوا له، ثم من بعده لابنه المعظم[6]"[7]، فرتبت لتمليك توران شاه خلفا لأبيه، وكان لها ما أرادت وتولى السلطنة السلطان توران شاه، وهذا الأمر دليل واضح على حكمتها وحسن تأتيها وتدبيرها للأمور، فهي من جهة أخفت موت السلطان خوفا من الصليبيين وكان هذا لحكمة منها بالغة، ومن جهة أخرى رتبت لخليفة السلطان وأخذت له البيعة، ووأدت أي فتنة قد تطل برأسها، وهذا يدل على عبقرية فذة؛ ومن جهة ثالثة كانت قد مهدت لموت السلطان بأن قالت إنه مريض، فكان إخراجا متقنا للحدث وعبقرية منها قلما تجد مثيلاتها عند الرجال!!

ومع أن شجر الدر لم تنصب نفسها سلطانة خلفا لزوجها، بل دفعت السلطنة لابنه باعتباره الوريث الشرعي للعرش الأيوبي بعد والده، إلا أنها لما رأت السلطان توران شاه لا

---

(1) الذهبي، تاريخ الإسلام، ٤ج٨، ص١٩٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٣٥.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، ١ج٧، ص٣٤٨؛ المقريزي، السلوك، ج١، ص٤٩٤.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٣٧.

(4) المصدر نفسه، ج٦، ص٣٣٧.

(5) الذهبي: تاريخ الإسلام، ٤ج٧، ص٤٤.

(6) المقصود بابنه المعظم توران شاه وقد مرت ترجمته.

(7) ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر، (٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م)، تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م، ج٢، ص١٧٦.

يريد بها وبالمماليك خيرا، أمرت بقتله ، فانظر كيف كانت مطاعة مع أنها ليست في السلطة بعد.

تعد شجر الدر هي أول سلاطين المماليك البحرية، وهذا أكبر وأبرز علامة على تأثيرها في مصر في العصر المملوكي، ولكنها لا تعد عند تعداد ملوك العصر المملوكي الأول، ولعل ذلك يعود تفسيره لأمرين، أولهما : أن مدة حكمها ثلاثة أشهر، وقيل ثمانين يوماً[١]، وثانيهما : أنها بعد أن تنازلت عن الملك للمعز أيبك ثم تنازل هو للملك الأشرف الأيوبي عاد الملك إلى حظيرة الأيوبيين، وانقطع ملك المماليك، ثم بعد ذلك انقلب المعز أيبك على الملك الأشرف وبعدها استمر الملك في المماليك؛ فملك المعز أيبك متصل بملك المماليك بخلاف ملك شجر الدر الذي انقطع ورجع إلى الأيوبيين ولم يتصل بملوك المماليك البحرية[٢].

وإن بلوغ امرأةٍ الملك في بلاد الإسلام مع ما هو معلوم في الفقه الإسلامي بالضرورة من عدم السماح المرأة بتولي الولايات العامة يدل قطعا على أنها امرأة ليست عادية، لأنها استطاعت بشخصيتها القيادية أن تخترق المسلمات الفقهية وتسيطر على عقول قادة مصر يومئذ، يقول ابن تغري بردي عن شجر الدر:"...والذي وقع لها من تملكها الديار المصرية لم يقع ذلك لامرأة قبلها ولا بعدها في الإسلام"[٣].

وانظر إلى مقامها في الملك كيف كان، يقول المقريزي عن المماليك: "واتفقوا على إقامة شجر الدر... مملكة مصر، وأن تكون العلامات السلطانية على التواقيع تبرز من قبلها، ... وصارت الأمور كلها معقودة بها، والتواقيع تبرز من قلعة الجبل، وعلامتها عليها والدة خليل؛ وخُطب لها على منابر مصر والقاهرة، ونُقش اسمها على السِّكة[٤]، ومثاله المستعصمة الصالحية، ملكة المسلمين، والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين؛ وكان الخطباء يقولون في الدعاء: اللهم أدم سلطان الستر الرفيع، والحجاب المنيع، ملكة المسلمين، والدة الملك خليل، وبعضهم يقول، بعد الدعاء للخليفة: واحفظ اللهم الجهة الصالحية، ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين، أم خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح"[٥]، وبعد أن صار المعز لدين الله سلطانا وتزوج بشجر الدر كانت مستبدة بالحكم، بحيث أن زوجها السلطان يخضع لإرادتها، فكأنها السلطان لا هو، قال المقريزي:" وكانت شجر الدر قد استبدت بأمور المملكة ولا تطلعه عليها،

---

[1] ابن كثير، البداية والنهاية، 1ج٧، ص٣٠٨؛ المقريزي، السلوك، ج١، ص٤٦٣.

[٢] المصدر نفسه، ص٧٤.

[3] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص337.

[4] الدراهم والدنانير المضروبة، لسان العرب، ج١٠، ص٤٤٠.

[5] المقريزي، السلوك، ج١، ص٤٥٩.

وتمنعه من الاجتماع بأم ابنه وألزمته بطلاقها، ولم تطلعه على ذخائر الملك الصالح"[١]، ثم في آخر المطاف قتلت زوجها السلطان المعز أيبك.

وبهذا فقد عدّ عدّها بعض المؤرخين أنها أولى سلاطين المماليك، وقال عنها آخر: وساست الرعية أحسن سياسة .

ثانياً : أشلون خاتون[٢]:

هي أشلون بنت سكتاي[٣] بن قراجين بن جغتاي[٤] نوين، أصلها من المغول، وكان أبوها أحد أمرائهم قدم أبوها إلى مصر سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م، في عهد السلطان الظاهر بيبرس، فتزوجها الأمير قلاوون[٥] سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م، وانجبت منه الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م[٦]، فلما مات السلطان المنصور قلاوون سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م[٧] تولى السلطة بعده ابنه السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون ، الذي أخرج الفرنج نهائيا من بلاد الشام ، ثم مات الملك الأشرف سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٤م، وتولى عقبه أخوه الناصر بن المغولية أشلون زوج السلطان قلاوون وكان عمره تسع سنين[٨]، ولم يستمر في الملك أكثر من سنة حتى خُلع سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٥م، وأرسل إلى الكرك ليتهيأ فيها للملك، ثم أعيد إلى الملك وبقي فيه إلى سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م، فخرج يريد الحج بزعمه، حتى وصل الكرك فاستولى عليها وأرسل لمماليك مصر أنه لا يريد الملك في مصر، فاجتمع الأمراء المماليك على تولية المظفر بيبرس

---

(1) المقريزي، السلوك، ج١، ص٤٩٣.

(2) خاتون امرأة شريفة الأصل، عالية المقام، ومعناه السيدة، كان يُلقب بها نساء الملوك، جمعها خواتين؛ مختار، أحمد عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، ١٤٢٩ هـ، ٢٠٠٨ م، ج١، ص٦٠٣.

(3) وقال المقريزي: بنت سكناي بالنون، ولكن الأكثر على أن أباها سكتاي بالتاء؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٢٤٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص١٢٦؛ العسقلاني، الدرر الكامنة، ج١، ص٣٨٥؛ ابن الوردي، التاريخ، ج٢، ص٢٢٦.

(4) وقيل جفتاي بالفاء والتاء ، ؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٢٤٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص١٢٦.

(5) قلاوون: الملك المنصور، سيف الدنيا والدين، أبو المعالي، وأبو الفتوح، كان من مماليك المسك الصالح أيوب، وكبر شأنه في زمن الظاهر بيبرس، إلى أن ولي السلطنة سنة ٦٧٨هـ بعد خلع الملك العادل، مات سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ٥ج١، ص٣٨٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ١ج٧، ص٦٢٣.

(6) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٤٩٢.

(7) ابن كثير، البداية والنهاية، ١ج٧، ص٦٢٣.

(8) المقريزي، السلوك،ج٢، ص٤٩٢.

الجاشنكير وهو من المماليك الجراكسة[١] فاضطربت أمور مصر سنة كاملة، حتى عاد الناصر إلى ملك مصر، للمرة الثالثة سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، فغير أمراءَ الفتنة في يوم واحد، فاستتب له الأمر واستمر في السلطنة دون معارضة مدة اثنتان وثلاثون سنة حتى توفي سنة ٧٤١هـ/١٣٤١م، وهو أطول ملوك زمانه عمراً[٢]، أما أمه أشلون فقد عاشت فترة ملكه الأولى والثانية[٣].

وكان لأشلون خاتون أم الناصر دور بارز إبان فترة حكم ابنها الناصر، ويتبين ذلك بما يلي: لقد كان للملك الأشرف نائب يدعى بيدرا[٤]، فتآمر مع أصحابه وغدروا بالملك وقتلوه وأرادوا تمليك بيدرا مكانه وخرجوا يريدون القاهرة، فقام مماليك الملك بألف وخمسمائة فارس في اليوم الثاني يريدون بيدرا وأصحابه ليثأروا لأستاذهم وليقتلوا بيدرا وهذا ما كان[٥]، وولي كما تبين أخوه الناصر بن أشلون وكان صغيرا، وليس له دراية في السياسة، وكانت أمه في حمايته وتدبير شؤونه، فإنه لما تولى ابنها الملك وهو ابن تسع سنين ثارت فتنة في مصر بين المماليك البحرية من جهة والمماليك البرجية[٦] من جهة ثانية[٧]، واشتد الصراع بينهم، وكان نائب السلطان يومئذ كُتْبُغا المنصوري[٨]، وكان الوزير هو علم الدين الشجاعي[٩]، ودارت

---

[١] بيبرس الجاشنكير: هو الملك المظفر ركن الدين بن عبد الله البرجي الجاشنكير المنصوري، وكان يعرف بالعثماني، كان من مماليك الملك المنصور قلاوون، وتولى ملك مصر سنة ٧٠٨هـ، وبعد سنة رجع الملك الناصر بن قلاوون إلى القاهرة وبويع بالملك، فجيء بالملك المظفر بيبرس بين يدي الناصر فقتله، سنة ٧٠٩هـ/ ١٣١٠م؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٨٣-١٨٤.

[٢] المقريزي، السلوك، ج٣، ص٣٠٢.

[٣] العسقلاني، الدرر الكامنة، ج١، ص٣٨٥؛ لم يعثر الباحث على سنة وفاتها.

[٤] بَيْدرا: هو الأمير بيدرا بن عبد الله المنصوري، من مماليك الملك المنصور قلاوون، وأعز أمرائه، ثم صار نائب السلطان في دولة ولده الملك الأشرف خليل، وهو الذي قتل الملك الأشرف، وقُتل بعد يوم واحد من مماليك الملك الأشرف، سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٤م؛ ابن تغري بردي، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الأتابكي، (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م)، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، تحقيق د. محمد محمد أمين، بدون سنة النشر، ج٣، ص٤٩٣-٤٩٤.

[٥] الذهبي: تاريخ الإسلام، ٥ج٢، ص١٨٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٦-١٧.

[٦] المماليك البرجية: هم مماليك الملك المنصور قلاوون، وكان معظمهم من الجراكسة، أكثر من شرائهم وأسكنهم بجواره في القلعة المعروفة في القاهرة، فسموا البرجية نسبة إليها؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٢١٨.

[٧] العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٣، ص٢٦٢.

[٨] كُتبغا: هو الملك العادل زين الدين المنصوري، قتل بيدرا بعد قتله الأشرف وولي النيابة للناصر في سلطنته الأولى، وكان هو الملك الحقيقي، ثم استقل بعد سنة وتسلطن سنة ٦٩٤هـ، ومات في سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٣م؛ الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، ج٤، ص١٤٤-١٤٦.

[٩] الشجاعي: هو سنجر الأمير الكبير علم الدين الشجاعي المنصوري، وزير الديار المصرّية، قتله كتبغا سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٤م؛ الصفدي، خليل بن أيبك بن عبد الله، (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م)، الوافي بالوفيات، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م، تحقيق أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، ١ج٥، ص٢٨٩.

الحرب بينهم، يوم للبرجية ويوم للبحرية حتى حوصر البرجية مع الشجاعي في القلعة، ودام الحصار على القلعة إلى أن طلعت أشلون والدة السلطان إلى أعلى السور وقالت للمماليك البحرية: "أيش هو غرضكم حتى إننا نفعله لكم؛ فقالوا: ما لنا غرض إلا مسك الشجاعي وإخماد الفتنة، ونحن لو بقيت بنت عمياء من بنات أستاذنا الملك المنصور قلاوون كنا مماليكها، لا سيما وولده الناصر محمد حاضر وفيه كفاية"[1]، فدخلت القلعة واتفقت مع الأمير حسام الدين لاجين[2] على إغلاق باب القلعة وهي التي عليها المعتمد، وبقي الشجاعي بداره بالقلعة محصوراً، أياما حتى استسلم، فلما استسلم وطلب الأمان فحكّم المماليك البحرية فيه أشلون أم السلطان، والأمير حسام الدين لاجين[3]، فلما أراد الشجاعي الذهاب إلى أم السلطان ولاجين ليحكما في شأنه عاجله بعض المماليك بسيوفهم فقتلوه، وأخذوا رأسه ورفعوه على سور القلعة ثم عادوا ونزلوا وجعلوه على رمح وجابوا به مصر والقاهرة، وكانوا يدخلون به على النساء فيضربنه بالأحذية لما كان في عهده من الظلم والعنت[4].

ويتبين أثر والدته أشلون والدة السلطان الناصر في ذلك ، من خلال ما يأتي :

– أن ابنها الصغير ما زال في بداية ملكه الأول فلما ثارت الفتنة خرجت أشلون وخاطبت المماليك وهم في المعركة، وجاوبها كتبغا (الملك الفعلي) بكل تواضع وتنازل وقال لها: إنهم على الولاء لأستاذهم (زوجها المنصور) وآل بيته، ما يؤكد منزلتها الرفيعة عند الأمراء.

– وأنها حافظت على بقاء ابنها على عرش السلطنة المملوكية، فكان لها الدور في التضحية، لاستمالة ولاء المماليك نحو السلطان المنصور قلاوون، فعندما استسلم الشجاعية حكّم المماليك أشلون (أم السلطان) في أمره، ما يؤكد على علو منزلتها فيهم واحترام رأيها في أمور السلطنة.

لم يكن لأشلون خاتون دور واضح المعالم في الحياة العامة كما كان لشجر الدر، لكن موقف أشلون في الفتنة في آخر القرن السابع الميلادي أمام الأمراء وتواضعهم لها، بل والرجوع لرأيها في الحرب بينهم، دليل واضح على عظم دورها في تلك الفترة.

---

[1] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص38.

[2] لاجين: السلطان الملك المنصور حسام الدين المنصور، مملوك السلطان الملك المنصور قلاوون، تولى السلطنة سنة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م، ومات سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٩م؛ الصفدي، أعيان العصر، ج٤، ص١٦٥-١٦٦.

[3] الصفدي، أعيان العصر، ج٥، ص٧٨.

[4] العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٤، ص١٤٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص39.

ثالثا : طغاي (أم آنوك زوجة الناصر):

طغاي أم آنوك[١]، اشتراها الأمير تـَنـْكز[٢] نائب الشام بتسعين ألف درهـم وقيمتهـا يومئذ نحو خمسة آلاف دينار[٣]، وقد كانت فائقة الجمال قال عنها صلاح الـدين الـصفدي[٤]:" كانت بديعة الحسن، باهرة الجمال الذي لا يطيق وصفه القالة اللسن[٥]"[٦]، فبلغ خبرها للسلطان الناصر فأرسل إلى تنكز يطلبها فبذل جهده في شرائه للملك، ولم يرد صاحبها أن يبيعها لتعلقـه بها، حتى دفع له تنكز التسعين ألف درهم فقبل ببيعها، فجهزها تنكز إلى الملك الناصر وكانـت حظية عند الملك، قال الصفدي -رحمه الله- فيها قولا بليغا:" رأت من الـسعادة، مـا لا يـراه غيرها من زوجات ملوك مصر الذاهبات، وتنعمت في ملاذ ما وصلت إليها يد الناهبات، لم يدم على محبة أحد غيرها، ولا نأى قِسّه عن ديرها، ولا عقل مجنونه عن ليلاها، ولا وقفـت بـه جمال غرامه إلا في عقبة إيلاها[٧]، لأن نياق أشواقه كانت كثيرة الـشرود، سـريعة الانتقـال والانفتال عن مراعي زرود[٨]"[٩]؛ ويروى أن سيدها الذي باعها لتنكز ندم على بيعها وتوجه إلى

---

[1] آنوك: هو الأمير سيف الدين آنوك بن محمد بن قلاوون، الأمير سيف الدين بن الملك الناصـر محمـد ابـن المنصور قلاوون، ومات سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٩، ص٢٤٥-٢٤٦.

[2] تنكز: هو تنكز بن عبد الله الحسامى الناصري، الأمير سيف الدين نائب الشام، كان من مماليـك الـسلطان لاجين، وقيل من مماليك الملك الأشرف خليل أخي الملك الناصر، وفي عهد الناصر عينه نائبا على الـشام ثم في آخر حياته سنة ٧٤١هـ عزله، وكان موته في تلك السنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م؛ ابـن تغـري بـردي، المنهل الصافي، ج٤، ص١٥٦-١٦١.

[3] والمقصود بالدينار الدينار الذهبي

[4] الصفدي، هو صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله، أديب، مؤرخ مشهور، كثير التصانيف، مـن مؤلفاتـه الوافي بالوفيات وجر الذيل في وصف الخيل وتوشيح الترشيح، توفي سنة ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م؛ العـسقلاني، الدرر الكامنة، ج٢، ص٨٧-٨٨.

[5] القالة: هو حسن القول، واللسن: هو جودة اللسان والفصاحة، وتعبير "القالة اللسن" لم أجـده إلا فـي كتـاب الصفدي (أعيان العصر)، وأظنه يريد القول الحسن الفصيح، مرتضى، تاج العروس، ج٦، ص١١٤.

[6] الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٦٠٠.

[7] كذا في النسخة بكسر الهمزة إيلة، عقبة إيلة والمشهور فتح الهمزة أيلة: وهي قرية تقع آخر الحجـاز وأول الشام، على جبل عال صعب المرتقى، يكون ارتفاعه والانحدار منه يوماً كاملاً. وهي طريق لا يمكـن أن يجوز فيها إلا واحد واحد، على جانبها أودية بعيدة المهوى؛ ياقوت الحموي، ياقوت بن عبد الله الرومـي، (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م، ج١، ص١٩٢؛ ابـن الوردي، عمر بن المظفر بن الوردي، (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، خريدة العجائب وفريدة الغرائـب، مكتبـة الثقافة الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٨ هـ، ٢٠٠٨م، تحقيق أنور محمود زناتي، ٩٧.

[8] أرض بطريق الحج من الكوفة، وهي منطقة تحدث الشعراء عن الشوق لها؛ ياقوت الحموي، معجم البلـدان، ج٣، ص١٣٩.

[9] الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٦٠٠.

مصر، ووقف للسلطان وشكا إليه حاله فأعطاه السلطان مالا وأرضاه[١]، واعتقها الناصر وتزوجها[٢]، وأنجبت له ابنه آنوك سنة ٧٢١هـ/١٣٢١م، وكان أحب أولاده إليه لأنه ابن طغاي مع أنه له إخوة أكبر منه[٣].

وكانت معظمة في أيام زوجها الناصر، وظلت معظمة بعد موته سنة ٧٤١هـ / ١٣٤٨م، إلى أن ماتت في سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م [٤].

أما على الصعيد السياسي فقد أجمع المؤرخون على أنها كانت معظمة منذ أن تزوجها الناصر قبل سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م[٥]، حتى ماتت سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م، وعاشت بعده في عصر أولاده الملك المنصور[٦] ،ثم الملك الأشرف كجك[٧] ، ثم الناصر أحمد[٨]، ثم الصالح إسماعيل [٩] ثم الكامل شعبان[١٠] ثم المظفر حاجي[١١] ثم الناصر الحسن[١٢] وكلهم أولاد الناصر محمد بن قلاوون، وقد عاصرَت طغاي أم آنوك هؤلاء السلاطين، وكانت معظمة جدا

---

[1] العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٢، ص٢٢١.

[2] الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص600.

[3] المصدر نفسه، ج٩، ص٢٤٥.

[4] الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٦٠١؛ العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٢، ص٢٢١.

[5] لم أقف في الكتب على سنة الزواج، وإنما المدون سنة ولادة ابنها آنوك.

[6] المنصور: أبو بكر بن محمد بن قلاوون، سيف الدين، الملك المنصور ابن الملك الناصر، أول من ولي بعد ابيه الناصر محمد، تسلطن في آخر سنة ٧٤١هـ ثلاثة أشهر ثم قتل ٧٤٢هـ / ١٣٤١م؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج١، ص٤٦٢.

[7] الأشرف: كچك بن محمد بن قلاوون، علاء الدين، الملك الاشرف ابن الملك الناصر، تسلطن بعد قتل أخيه المنصور وكان عمره ١٢ سنة تقريبا، مدة سلطنته خمسة أشهر ثم خلع، ولم يلبث طويلا حتى مات ٧٤٦هـ / ١٣٤٦م، العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٣، ص٢٦٥.

[8] الناصر: أحمد بن محمد بن قلاوون، شهاب الدين الملك الناصر ابن الملك الناصر، تولى الملك آخر سنة ٧٤٢هـ ثم خلع بعد أقل من ثلاثة أشهر في سنة ٧٤٣هـ، ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م، العسقلاني، الدرر الكامنة، ج١، ص٢٩٤-٢٩٦.

[9] الصالح: إسماعيل بن محمد بن قلاوون، أبو الفداء، علاء الدين، الملقب بالملك الصالح، توفي سنة ٧٤٦هـ / ١٣٤٥م، العسقلاني، الدرر الكامنة، ج١، ص٣٨٠.

[10] الكامل: شعبان الكامل ابن محمد الناصر ابن قلاوون، تولى السلطنة سنة ٧٤٦هـ وبعد سنة ونيف قتل ٧٤٧هـ /١٣٤٦م، العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٢، ص١٩١-١٩٢.

[11] المظفر: حاجي بن محمد بن قلاوون، تولى بعد مقتل اخيه الكامل، تولى سنة واحدة وأربعة أشهر ثم قتل، ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م، العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٢، ص٣-٤.

[12] الحسن الناصر: حسن (الناصر) بن محمد (الناصر) ابن قلاوون، وكان اسمه قماري فلما تسلطن تسمى حسنا، أبو المحاسن: من ملوك الدولة القلاوونية بمصر والشام، مدة سلطنة سبع سنين إلا قليلا، وكان حازما وخافه الناس حتى قتل، ٧٦٢هـ/ ١٣٦١م، العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٢، ص٣٨- ٤٠.

في عصورهم جميعا[١]، حتى ماتت في سلطنة الحسن بن الناصر سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م، ومن الأخبار التي تدل على تأثيرها في السياسة المملوكية أن زوجها الناصر قد عين أخاها آقبُغا[٢] أستاذا لدار السلطان وكان قائدا لجيش من المماليك وكان في غاية التمكن والقدرة في عهد الناصر، قال عنه الصفدي:" كان في أيام أستاذه في غاية التمكن والقدرة والتسلط والبأس والجبروت، لو ذكر اسمه للماء جمد، أو مر ذكره على الجمر خمد، ليس لأحد عنده مكانة، ولا يجد له خضوعاً ولا استكانة"[٣]، وقد كان قد اغتصب كثيراً من أملاك الناس في عهد الناصر، فلما توفي الناصر وملك ابنه المنصور أخذ من آقبغا كل ما يملك ورد المغتصبات لأصحابها، ولم يبق له من ماله شيئا[٤].

وكما كان لطغاي دور سياسي كان لها دور اقتصادي فقد حجت حجة مشهورة، كثر حديث المؤرخين عن بدائع هذه الرحلة، وعلى إثر هذه الرحلة أبطل السلطان الناصر الضرائب عن مكة لأمر أبدته له زوجته طغاي[٥].

ومن الحوادث الدالة على دورها في الدولة وتأثيرها في مجريات حياة الناس ومعاملاتهم، أنه كان للملك الناصر قاض يدعى النشّو[٦] وكان يظلم الناس ويصادر أموالهم، ويتسلط على التجار ومن ذلك أن النشو صار يجبر التجار على دفع العشر بأضعاف، فكثرت الشكوى منه إلى أن توصل بعض التجار لزوجة السلطان طغاي أم آنوك، وأخبرها أنه اشترى من النشو خشباً يساوي ألفي درهم بألفي دينار!!، فأخبرت أم آنوك السلطان بذلك، فغضب السلطان الناصر على النشّو بشدة وأمر بإحضاره وبإحضار التاجر ليتواجها، وبلغ النشو الخبر، ففعل النشو حيلة لكي يخرج من المأزق ويدفع عن نفسه سخط السلطان، فأرسل النشو رجلاً إلى

---

[١] الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٦٠١.

[٢] آقبغا الأفضل: هو عبد الواحد الناصري أخو طغاي زوجة الناصر، وكان له حظوة عند الناصر وأمر ولديه أحمد ومحمد ابنا آقبغا أمراء، وتقلد عند الناصر مناصب رئيسة في الدولة، وأمّر الناصر ولديه أحمد ومحمد، وكان سبب تقديمه عند الناصر أن الناصر كان تزوج أخته طغاي وكان جباراً كثير الظلم، ٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م؛ الصفدي، أعيان العصر، ج١، ص٥٤٨؛ العسقلاني، الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩١.

[٣] الصفدي، أعيان العصر، ج١، ص٥٤٨.

[٤] المصدر السابق نفسه، ج١، ص٥٤٨.

[٥] العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٢، ص٢٢١.

[٦] النشّو: هو عبد الوهاب بن فضل الله شرف الدين النشو، القاضي الكبير، كان حسن السيرة في بداية حياته يحب خدمة الناس، وبعد أن أكرمه الملك الناصر وأغدق عليه العطايا تكبر ولبس للناس جلد النمر، فأكثر من مصادرة أموال الناس والموظفين في الدولة، وكثر شاكوه للسلطان، ٧٤٠هـ/ ١٣٩٣م؛ العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٢، ص٤٢٩-٤٣٠.

التاجر، واحتال عليه، بأن طلب من التاجر أن يقرضه مبلغا من المال، فحدّثه التاجر بأمر الخشب وأنه اشتراه وأنه سيخسر فيه خسارة فادحة، فقال له الرجل: أرني الخشب فإني محتاج إليه، فلما رآه قال: هذا غرضي، واشتراه منه وأربحه عليه ألف درهم إلى شهر، وكتبا العقد، وفرح التاجر بخلاصه من الخشب، وأخذ الرجل الخشب وأتى بالعقد إلى النشو، فأخذه النشو وخرج به إلى السلطان من فوره، وقال للسلطان: يا مولانا السلطان، نزلت أخذ الخشب من التاجر فوجدته قد باعه بربح ألف درهم، وأنا لم أغلي السعر على التجار فهذا سعر السوق، فلم يصدقه السلطان، وطلب التاجر وسأله عن غبن النشو له في ثمن الخشب، فلما رأى التاجر أم آنوك اغتر وأخذ يتشكى ويقول: ظلمني النشو وأعطاني خشباً بألفي دينار يساوي ألفي درهم، فقال له السلطان: وأين الخشب؟، فقال: بعته بالدين، فقال النشو: قل الصحيح، فهذه معاقدتك معه، فأحرج التاجر واعترف بأنه باعه وربح فيه ألف درهم، فغضب عليه السلطان وقال له: ويلك تقيم علينا القالة، وأنت تبيع بضاعتنا بفائدة؟!![١].

فهذه القصة تظهر تدخل أم آنوك في حياة الناس وفي شؤون الحكم والاقتصاد، وإلا لماذا قصدها التجار وشكوا إليها القاضي النشّو؟؟ ثم أرأيت كيف اغتر التاجر أمام السلطان عندما رأى أم آنوك؟؟ ما يؤكد على ثقة الناس بها وبرأيها وبتأثيرها على السلطان في أمور الرعية.

هذا على الصعيد الاقتصادي وأما على الصعيد الاجتماعي فقد قال عنها المقريزي: "وكانت عفيفة طاهرة كثيرة الخير والصدقات والمعروف، جهزت سائر جواريها وجعلت على قبر ابنها بقبة المدرسة الناصرية بين القصرين قرّاء، ووقفت على ذلك وقفاً، وجعلت من جملته خبزاً يُفرّق على الفقراء"[٢].

وقد كانت تكثر من عتق الرقيق، فقد أعتقت في حياتها ألف جارية وثمانين خادما[٣].

ومن رحمتها ورزانة عقلها ورصانة رأيها أنها تولت تربية السلطان الملك الناصر حسن بن محمد ابن زوجها من امرأة أخرى، تولته بعد موت أمه[٤]، ما يؤكد تحلي طغاي أم آنوك بالعقل والرحمة، فهي ليست من السفيهات اللائي تأخذ إحداهن الغيرة من ضرتها فتعاديها وتعادي ذريتها، وقد يصل بها الحال لأن تتآمر على قتل أبناء زوجها، بل قد تقتل زوجها نفسه، وقد مر معنا كيف صنعت شجر الدر بزوجها المعز أيبك حين بلغها أنه يريد أن يتزوج عليها .

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٩١.

(2) المقريزي، الخطط، ج٤، ص٣٠٠.

(3) المصدر نفسه، ج٤، ص٩٦.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص١٨٧-١٨٨.

رابعاً : بركة خاتون (أم السلطان الأشرف):

هي بركة خاتون بنت عبد الله أم السلطان الأشرف شعبان بن حسين[١]، تزوجت في سلطنة ابنها من أمير عسكري يدعى ألجاي اليوسفي[٢] كانت امرأة مبجلة تحب الناس وتعطف على الفقراء والمحتاجين كثيرة الصدقات كثيرة المعروف[٣]، قال عنها ابن تغري بردي:" كانت من أعظم نساء عصرها خيراً، وديناً، وبراً، وجمالاً، وكرماً"[٤].

ومن مناقبها أنها خرجت تريد الحج سنة ٧٧٠هـ/١٣٦٩م وخرج معها خلق كثير فما زالت تصنع معهم المعروف الواسع وتغدق عليهم وترعى شؤونهم، وفرقت في الحرمين الشريفين أموالا طائلة، حتى سميت تلك السنة بين عامة الناس في بلاد الإسلام بسنة أم السلطان[٥]، ثم وافتها المنية وهي في سن الكهولة[٦] سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٢م، وحزن ابنها عليها حزنا شديدا[٧]؛ وكانت من خيرها في حياتها أن رثاها شهاب الدين الأعرج السعدي[٨] عند وفاتها:

في مستهل العشر من ذي حجة ... كانت صبيحة موت أم الأشرف

فالله يرحمها ويعظم أجرها ... ويكون في عاشورٍ موت اليوسفي[٩]

يتضح من سيرة حياة أم السلطان الأشرف تأثيرها في الحياة العامة، فعلى صعيد السياسة فقد تزوجت من الأمير ألجاي، وبعد أن تزوجته صار له شأن وصار أمير عسكر السلطان، يقول ابن تغري بردي عن زواج ألجاي من أم السلطان:"... فعند ذلك عظم قدر ألجاي المذكور

---

(1) الأشرف: هو زين الدين أبو المعالي شعبان بن الأمجد حسين بن الناصر محمد بن قلاوون، ولي السلطنة وعمره عشر سنين سنة ٧٦٤هـ، خلع من السلطنة واختفى في مصر ثم وجد وأسر ثم مات ٧٧٨هـ/١٣٧٧م، العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٢، ص١٩٠-١٩١؛ المقريزي، السلوك، ج٤، ص٢٦٧-٢٦٨.

(2) الجاي: الأمير ألجاي اليوسفي أمير سلاح أتابك العساكر بالديار المصرية، توفي سنة ٧٧٥هـ/١٣٧٣م؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١ج١، ص١٠١.

(3) العسقلاني، الدرر الكامنة، ج١، ص٤٧٤-٤٧٥.

(4) ابن تغري بريد، المنهل الصافي، ج٣، ص٣٥٦.

(5) العسقلاني، الدرر الكامنة، ج١، ص٤٧٤-٤٧٥؛ ابن تغري بريد، المنهل الصافي، ج٣، ص٣٥٦.

(6) الكهل هو من جاوز الثلاثين من العمر؛ تاج العروس، ج٣٠، ص٣٦٠.

(7) ابن تغري بريد، المنهل الصافي، ج٣، ص٣٥٦.

(8) أحمد بن يحيى بن مخلوف بن مري بن فضل الله بن سعد بن ساعد الشيخ شهاب الدين الأعرج السعدي المؤدب الأديب، توفي سنة ٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م؛ العسقلاني، الدرر الكامنة، ج١، ص٣٣٥-٣٣٦.

(9) ابن تغري بريد، المنهل الصافي، ج٣، ص٣٥٦، وبيتان الأعرج السعدي من العجائب لأنه تنبأ فيهما بموت اليوسفي في عاشوراء وهو العاشر من محرم على الراجح، وقد تحقق ذلك.

من كونه زوج أم السلطان وصار أتابك العساكر، وبهذا استطال ألجاي في المملكة، فإنــه قبــل زواجه بأم السلطان خوند[1] بركة كان من جملة الأمراء المقدمين لا غير"[2]، فهذا دليل واضـــح على تأثيرها السياسي في الدولة.

وكان لها دور اجتماعي كبير فهي التي بنت المدرسة المعروفة بمدرســة أم الــسلطان، بالقرب من قلعة الجبل، وكان موضعها قديماً مقبرة لأهل القاهرة، أنشأتها أمّ السلطان ، وعملت بها دروساً للشافعية، ودروساً للحنفية، وجعلت على بابها حوض ماء للسبيل وهي من المدارس الجليلة[3].

ومن دورها الاجتماعي كذلك عمارتها المسماة عمارة أمّ السلطان وهذه العمارة ســوق كبير يباع فيه الجلود والأحذية، وتعرف بقيسارية الجلود[4]، وبنت فوق السوق دورا جليلة لسكن العامّة يشتمل على عدّة طوابق، وكانت تعرف هذه الدور برَبع أم السلطان[5]، لأن كلمة الرَّبــع تطلق على الدور والمنازل[6]، وأوقفت ذلك كله على مدرســتها المــذكورة آنفــا (مدرســة أم السلطان)[7].

ومن دورها الاجتماعي كذلك رحلة حجها المشهورة والتي ذكرت آنفــا، وكيــف حــجّ بمعيتها خلقا كثيراً ، وفرقت في الحرمين الشريفين أموالا عظيمة، حتى سمى الناس تلك السنة بسنة أم السلطان، وعليه فإن الخوند بركة أم السلطان الأشرف كان لها دور في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في ذلك العصر، لذلك مدحها المادحون وقيل فيها أنها "من أعظم نساء عصرها خيراً، وديناً، وبراً، وجمالاً، وكرماً"[8].

ثانياً: نساء الفئات الأخرى:

لقد تبين أن المرأة في العصر المملوكي تبوأت مراكز اجتماعيــة وسياســية مرموقــة، فمنهن من تسلطنت على مصر، ومنهن من حظيت بمكانة مرموقة عند السلاطين، وبالإجمــال

---

[1] خوند: سيد، مذكر ومؤنث، خوند أيضاً أو خوندة أي أميــرة؛ رينهــارت بيتــر آن دُوزِي، (ت١٣٠٠هـــ/ ١٢٨٣م)، تكملة المعاجم العربية، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ١٩٧٩م، ترجمة محمَّد سَليم النعَيمي و جمال الخياط، ج٤، ص٢٤٤.

[2] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١، ص47.

[3] المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٤، ص٢٥٨.

[4] المصدر نفسه، ج٣، ص٢٦١.

[5] المصدر نفسه، ج٤، ص٣٥٧.

[6] ابن منظور، لسان العرب، ج٨، ص٩٩.

[7] المقريزي، السلوك، ج٤، ص٣٥٧.

[8] ابن تغري بريد، المنهل الصافي، ج٣، ص٣٥٦.

كان للمرأة دور ظاهر في مصر في الحياة العامة في عصر المماليك[١]، ولم يقتصر دور المرأة على أمهات السلاطين، وإنما تعداهن إلى أمهات الأمراء ونسائهم، والجواري والحظايا .وتقسم إلى ما يلي:

نساء علية القوم من أرباب السيوف والأقلام:

أرباب السيوف هم الأمراء قادة العساكر والجند، وأرباب الأقلام أي الكتاب وهم يشملون الوزراء والعلماء والقضاة والشعراء وموظفو الدواوين[٢]، وهؤلاء هم رؤوس الناس، وقادة الجند (أرباب السيوف) هم قوة الدولة التي تبطش بها وتجاهد، والكتاب الموظفون الذين تعتمد وظيفتهم على المراسلات والتدوين، ولقد كان لنساء بعض هؤلاء دور في ذلك العصر، يتراوح بين دور سياسي أو اجتماعي أو ديني أو ثقافي.

١- الخاتون ستيتة:

الخاتون بنت الأمير سيف الدين كوكائي، زوج الأمير سيف الدين تنكز، كانت خيرة صينة دينة، ترد زوجها عن أشياء كثيرة، وهي والدة الخوندة أم السلطان الملك الصالح صلاح الدين صالح، وأم فاطمة زوج الأمير سيف الدين بلجك ابن أخت الأمير سيف الدين قوصون.

توفيت رحمها الله تعالى في سنة ٧٣٠هـ/١٣٣٠م، وعمل إلى جانب قبرها رباط للنساء وكانت قد حجت في سنة ٧٢٩هـ/١٣٢٩م، وتصدقت بشيء كثير[٣].

٢- إلتطمش أم الملك السعيد:

إلتطمش بنت بركة خان ملك التتر، والدة الملك السعيد ابن الظاهر بيبرس[٤]، ولقد كانت تتمتع بنفوذ عظيم ليس فقط على ابنها ولكن أيضا على أمراء الدولة، بدليل أنه عندما نشب الخلاف بين الملك السعيد وأمرائه لم يجد أفضل من أمه ليبعث بها للتفاوض مع الأمراء في الصلح فأظهروا لها كل الاحترام، واتفقت معهم على شروط والتزم الطرفان بها، وتوفيت بالقاهرة[٥].

---

[1] عبد الرزاق، أحمد، المرأة في مصر المملوكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٩م، ص٣١. وسيشار إليه فيما بعد: عبد الرزاق، المرأة في مصر المملوكية.

[2] نجمي، كمال، يوميات أرباب السيوف والأقلام من الكتاب والقواد العظام في تاريخ العروبة والإسلام، سيناء للنشر، ومؤسسة الانتشار العربي، ١٩٩٨م، ص٩.

[3] الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٤٠٣.

[4] السعيد بن الظاهر محمد بن بيبرس، السلطان الملك السعيد ناصر الدين أبو المعالي بركة خان ابن السلطان الملك الظاهر، مات سنة ٦٧٨هـ/١٢٨٠م، الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢، ص١٩٧.

[5] عبد الرزاق، المرأة في مصر المملوكية، ٥٤؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٩، ص٢٠٤.

وهذا الأمير آنوك بن السلطان الناصر تزوج بنت بكتمر الساقي[١] فعقد العقد بالقصر على صداق مبلغه من الذهب اثنا عشر ألف دينار المقبوض منه عشرة آلاف دينار[٢].

ثالثاً: الجواري:

١- اتفاق المولدة:

اتفاق المولدة هي جارية سوداء حالكة السواد[٣]، وقد كانت جارية مغنية حسنة الصوت من بلبيس[٤]، جيء بها إلى القاهرة وتعلمت العزف على العود، وقد برعت فيه جدا، وفاقت من عاصرها، وبلغت في العزف مبلغا[٥]، فقدمتها سيدتها لبيت السلطان الناصر، فتعلق بها ابنه الصالح إسماعيل، وتزوجها وولدت منه، ثم بعد وفاته تزوجها أخوه الكامل شعبان ، وولدت منه أيضا، ثم لما جاء السلطان المظفر حاجي بن الناصر، صادر كل ما تملك وأخرجها من القلعة مع جواريها، ثم أرجعها إلى القلعة مع خدمها وجواريها وتزوجها وأغدق عليها العطايا والهدايا أكثر مما أغدق عليها أخواه من قبله وتولع بها بشدة، ثم لما جاء أخوهم الناصر حسن أخرجها من القلعة وقطع راتبها.

ثم تزوجها الوزير موفق الدين هبة الله[٦] وأحبها بشدة، وأغدق لها العطايا حتى مات[٧]، ثم تنقلت بها الأحوال حتى ماتت[٨].

لم يذكر المؤرخون دورا ذا شأن لهذه المرأة، ولكن زواجها من ثلاثة سلاطين ثم الوزير، وولع هؤلاء بها هو مظنة أن يكون لها دور سياسي واجتماعي في العصر المملوكي، إلا أن المؤرخين لم يذكروا ذلك، أو أنهم لم يعرفوه أصلا، ولكن يمكن القول لقد كان لها دور سياسي سلبي ولعله غير مباشر، فإن السلطان المظفر حاجي قد انهمك بها وانشغل عن تدبير

---

(1) بكتمُر الأمير سيف الدين الساقي الناصري، كان أولاً من مماليك المظفر بيبرس الجاشنكير، ثم صار أقرب الأمراء إلى السلطان الناصر بن قلاوون، ومات في سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م، الصفدي، أعيان العصر، ج١، ص٧٠٩-٧١٠.

(2) المقريزي، السلوك، ج٣، ص١٥٢.

(3) المقريزي، السلوك، ج٤، ص٣٥.

(4) بلبيس بكسر الباءين: مدينة مصرية بينها على الطريق من مصر إلى الشام: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٤٧٩.

(5) العسقلاني، الدرر الكامنة، ص٢١٦.

(6) موفق الدين: هو أبو الفضل، هبة الله بن سعيد الدولة إبراهيم الوزير الصاحب، تولى الوزارة حتى مات، ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م، المقريزي، السلوك، ج٤، ٢١٦.

(7) العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٤، ص٢٠٠.

(8) لم أعثر على سنة وفاتها.

أمور الدولة، وأنفق أموال الدولة عليها فبدأ أمراء السلطنة يتحدثون في الأمر وهو غاضبون فلما بلغ ذلك السلطان أراد أن يبطش بهم، ولكن بعض الأمراء نصحوه أن لا يفعل، فإن هذا الأمر ليس في صالحه، وأقنعوه وخوفوه عاقبة ما يفعل، فأمر بإخراج اتفاق ومن حوالها من الجواري من القصر بثيابهن دون مال[1]، ولم يذكر من صفاتها الاجتماعية إلا أنها كانت من أجمل أصوات زمانها في الغناء، وأبرع أهل زمانها في العزف على العود، فأحبها لذلك السلاطين حبا جما!! يقول ابن تغري بردي:" وهذا ثالث سلطان من أولاد ابن قلاوون تزوّج بهذه الجارية السوداء، وحظيت عنده، فهذا من الغرائب، على أنها كانت سوداء حالكة لا مولّدة، فإن كان من أجل ضربها بالعود وغنائها فيمكن من تكون أعلى منها رتبة فى ذلك وتكون بارعة الجمال بالنسبة إلى هذه، فسبحان المسخّر"[2].

٢ – خوبي العوادة:

خوبي كانت جارية الأمير سيف الدين بكتمر الساقي، اشتراها بعشرة آلاف دينار مصرية، كانت مغنية عازفة على العود، جميلة الحسن والطرب، لم يكن في مصر لها نظير، اشتراها الأمير بكتمر وهام بها، وكانت عازفة على العود ومهرت به جدا، قال عنها الصفدي:"إذا جست أوتارها أخذت من القلوب أوتارها، وجرى من لطف أناملها الماء في العود، وقيل: هذا البدر في السعود[3]، فإذا غنت أغنت عن الأطيار، وإذا قصدت قصدت[4] قلوب البررة الأخيار"[5].

وظلت عند بكتمر الساقي حتى مات في طريق الحجاز فلما بلغها موته كسرت عودها، فباعها السلطان الناصر لبَشْتاك[6] بستة آلاف دينار، ولكنها لم تحظ عنده، ثم إنه وهبها لأحد مماليكه[7].

---

[1] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص١٤٩.

[2] المصدر نفسه، ج١٠، ص١٢٣.

[3] السعود جمع سعد وهي الكواكب التي يقال لكل واحد منها: سعد كذا، وهي (عشرة)، بعضها يعتبر من منازل القمر، وهي معروفة عند المنجمين وعلماء النجوم، وتضرب بها الأمثال على التشاؤم أو التفاؤل: مرتضى، تاج العروس، ج٨، ص١٥٤–١٥٥.

[4] عنّ: هي تدل في الأصل على معنيين، الأول ظهر، والثاني حبس، ومراد الصفدي بقوله: (إذا عنت عنت قلوب البررة...)، إذا ظهرت خوبي المغنية أسرت القلوب بجمالها وغنائها: ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني، (ت ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ج٤، ص١٩–٢١.

[5] الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٣٣٧–٣٣٨.

[6] بشتاك: الأمير سيف الدين الناصري، مات ٧٤٢هـ/١٣٤١م، الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٠، ص٨٨.

[7] العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٢، ص٩٥.

ومن براعتها في الضرب على العود رويت القصص والحكايا، فقد ذكر الصفدي أنه لما اشتراها بكتمر الساقي وتعلق بها بلغ أمرها لامرأته أم الأمير أحمد، فقالت له: أريد أنزل إلى دارك التي على البركة لأتفرج هناك، فعلم المقصود، فنزل إلى خوبي وقال لها: الست إذا جاءت إلى هنا اجلسي على يديها والعود في حجرك، واضربي قدامها وغني لها، فلما نزلت امرأته أم محمد ودخلت الدار أول ما توجهت إلى الشباك المطل على البركة، والتفتت إلى جهة الجواري فرأت جارية بيضاء، وجميع ما عليها أبيض مصقول من غير زركش ولا حلي ولا مصاغ فأنكرت ذلك، وقالت: من هي هذه[1]؟

فقبلت الأرض وقعدت، ووضعت العود في حجرها، وقالت: دستور، وغنت نوبة، فقالت امرأة بكتمر: من هي هذه؟ فقالوا: هذه جارية الأمير، فقالت: هذه خوشداشتي، ثم أخذت بيدها، وأجلستها إلى جانبها وأحضرت لها بدلة كاملة بطرز زركش، وحلياً ومصاغاً مما هو يجمله، وقالت لمن يثق إليها: والله لما قالوا اشترى الأمير جارية بعشرة آلاف دينار وأسكنها في داره على البركة، ظننت أنها تكون مثلي في الحشم والخدم والجواري والملبوس، ثم إنها طلعت بعد ذلك إلى القلعة ولم تنكر من أمرها شيئاً، واطمأنت نفسها إلى ذلك[2]، وماتت خوبي بعد سنة ٧٤٠هـ/١٣٣٩م [3].

٣- أردكين بنت نوكاي:

أردكين بنت نوكاي بن قطغان المغنية تزوج بها الأشرف خليل فلم تزل عنده إلى أن قتل فعملت له عزاء عظيما ثم تزوجها الناصر في سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م وولدت له ولدا ذكرا فمات وهو صغير في سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م فعملت له عزاء عظيما ثم طلقها الناصر في سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م وأنزلت إلى القاهرة ورتب لها ما يكفيها إلى أن ماتت في المحرم سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٤م وهي صاحبة التربة بالصخر المعروفة بتربة الست وخلفت لما ماتت ألفا من الرقيق ما بين جارية وخادم وذخائر نفيسة فاحتاط الناصر بذلك وصالح أخاها الخضر على تقدير مائة ألف درهم وكانت موصوفة بالخير والجود[4].

---

[1] العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٢، ص٩٥.

[2] الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٣٣٧-٣٣٩.

[3] العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٢، ص٩٥.

[4] المصدر نفسه، ج١، ص٣٤٧.

٤- أردو أم الأشرف كجك:

قدمت مع أختها طولو فأعطى الناصر أختها طولو ليلبغا اليحياوي وعظمت منزلتها عند السلطان حتى أعطاها لما ولدت عصبة جوهر قومت بخمسين ألف دينار ولما خلع ابنها من السلطنة أحيط بموجود آردو وصودرت هي وجواريها وأنزلت من القلعة إلى أن ماتت في[1].

٥- قطر النبات:

سكرة بنت عبد الله، وكانت جارية لجمال الدين محمد بن علي بن عبد النور[2] فأعتقها، وكانت من محدثات القاهرة، توفيت سنة ٧٨٥هـ/١٣٨٣م بالقاهرة[3].

٦- مؤنسة بنت صبيح:

مؤنسة بنت صبيح بن عبد الله أم محمد عتيقة الجمال عبد الملك، وأجاز لها الفخر ابن البخاري وهو فخر الدين أبو الحسن علي بن أحمد بن عبد الواحد بن البخاري إمام عصره في الحديث المتوفى سنة ٦٩٠هـ/١٢٨١م وهو مفخرة لمن تتلمذ على يديه وأجاز له وقد لقب بمسند العالَم[4]، وحدثت وماتت سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م بالقاهرة[5].

٧ - دنيا بنت الأقباعي:

المغنية الدمشقية، اشتهرت بالتقدم في صناعتها فاستدعاها الملك الناصر حسن على البريد إلى مصر فأكرمها ثم وفدت على الملك الأشرف فحظيت عنده، ومن مآثرها أنها أعظم الأسباب في إسقاط ضريبة المغاني[6]، سألت السلطان في ذلك فأجاب إليه ثم أراد ابن آقبغا آص إعادتها فتكلم الشيخ سراج الدين البلقيني والشيخ ضياء الدين مع الأشرف وهو ضعيف فأنكر على ابن آقبغا آص ذلك واستمر إبطاله[7].

---

(1) العسقلاني، الدرر الكامنة ، ج١، ص٣٤٨.

(2) جمال الدين الشاذلي، محمد بن علي بن عبد النور بن احمد الشاذلي كمال الدين ولد سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٥م، وكان من محدثي القاهرة، ومات في سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٨م، ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤، ص٧١.

(3) ابن الكيال، بركات بن أحمد بن محمد الخطيب، (ت ٩٢٩هـ/ ١٥٢٣م)، الكواكب النيرات في معرفة من اختلط من الرواة الثقات، تحقيق عبد القيوم عبد رب النبي، دار المأمون، بيروت، ١٩٨١م، ص٤٤٩-٤٥٠.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص٢٨.

(5) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤، ص٣٨٥.

(6) ضريبة المغاني أو ضمان المغاني: ضريبة تدفع للدولة من المغنيات والراقصات والبغايا، مقابل السماح بممارسة أعمالهن،

(7) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، ج١، ص١٦٣-١٦٤.

٨- ضيفة الحموية:

هي شاعرة من جواري السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وأنشدت في السلطان هـذه الأبيات الجميلة:

ولقـد نـذرت بـأن رأيتـك سـالما ... ونظـرت وجهـك أن أصـوم شـهورا

حـذرا عليـك مـن الزمـان وغـدره ... حتـى تعـود مؤيـدا منـصورا[١]

٩- عزيزة بنت السطحي:

كانت من أعيان مغاني مصر، فريدة عصرها في النشيد مع حسن الـصوت وفـصاحة بإعراب الشعر، وقيل لم يخلفها من بعدها أحد، وقد رأت من الأعيان وأرباب الدولة غاية العـز والعظمة مالا يراه غيرها من أرباب هذا الفن، وكان لها بمصر شهرة زائدة وقال فيها الـشهاب المنصوري:

وفتـاة نزهـت طرفـي فيهـا ... شـغفت مـسمعي بجـوهر فيهـا

منـذ زارت محبهـا وتغنـت ... كـاد يرمـي بنفـسه مـن أبيهـا[٢].

---

[1] عبد الرزاق، المرأة في مصر المملوكية، ص٤٤.

[2] المصدر نفسه، ص٤٥.

الفصل الثاني

دور المرأة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية

ساهمت المرأة بدور اقتصادي واجتماعي في هذا العصر لا تقل أهمية عن الأدوار الأخرى التي شقتها في جوانب الحياة الأخرى.

أولاً: دور المرأة في الوقف:

الوقف له عدة معان في اللغة فقيل هو الحبس وقيل المنع وقيل السكون وجمعها أوقاف مثل ثوب وأثواب(١)، وأما في الاصطلاح فمختلف فيه ولكنه يدور عند الفقهاء على حبس مال يمكن الانتفاع به مع بقاء عينه بقطع التصرف في رقبته على مصرف مباح موجود(٢)، ويجمع على وقوف وأوقاف(٣).

شهد العصر المملوكي تطورا كبيراً، وازدهارها لمختلف المجالات التي وضع أساسها في العصر الأيوبي، ومن جملتها نظام الوقف، ومن المعروف أن العصر الأيوبي في مصر يمثل مرحلة انتقال بين العصرين الفاطمي بنظمه المرتبطة بالمذهب الشيعي من ناحية، وبين العصر المملوكي بنظمه الموروثة عن الدولة الأيوبية السنية من جهة أخرى، ومن الطبيعي أن يتأثر نظام الوقف بهذا التحول الكبير، وخاصة أنه نظام متشعب ومرتبط بمختلف مظاهر الحياة السياسية والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، و الفكرية(٤).

حقيقة أنه عندما قامت دولة المماليك في مصر، في منتصف القرن السابع للهجرة / الثالث عشر للميلاد –كان نظام الوقف نظاما راسخا متغللا في المجتمع ، تمتد جذوره العميقة إلى بداية دخول العرب المسلمين مصر(٥).

---

(1) الشربيني، محمد بن أحمد الخطيب، (المتوفى: ٩٧٧هـ)، مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م، ج٣، ص٥٢٢.

(2) معنى التعريف أن الوقف هو حبس (وضع مال) يمكن الانتفاع به دون هلاك عينه فلا وقف لطعام أو شراب، وإنام الوقف يكون لعين ينتفع بها دون استهلاك عينها، والمقصود بقطع التصرف في رقبته أنه لا يصح في حق مال الوقف بيع العين وإنما يصح بيع المنافع. الزاملي، فايز إبراهيم ، الأوقاف في فلسطين في عهد المماليك، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية، غزة، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م، ص٢٤-٢٥.

(3) مرتضى الزبيدي، تاج العروس، ج٢٤، ص٤٦٧.

(٤) المصدر نفسه، ص٨٣.

(5) إبراهيم، عبد اللطيف ، دراسات تاريخية وأثرية في وثائق من عصر الغوري، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ١٢٣ . وسيشار لاحقاً، إبراهيم، دراسات تاريخية.

ولكن ما شهدته مصر من تطورات في العصر المملوكي ، وخاصة الاتجاهات السياسية، ونظم الحكم ، والاتجاهات الدينية ، والاقتصادية ، والثقافية ، وما احاط بكل هذه الاتجاهات من ظروف خاصة أنعكست آثارها على نظام الوقف.

ورجعت أسباب انتشار الأوقاف في مصر وازدهارها إلى جوانب متعددة – سياسية ، واقتصادية ، واجتماعية وثقافية تبدو في حياة ذلك العصر ، وقد أثرت هذه الجوانب في نظام الوقف، وعملت على تدعيمه وازدهاره ، كما تأثرت هي نفسها بنظام الوقف[١].

فقد مثل سلاطين المماليك العصر الذهبي لنظام الأوقاف، حيث ظهر الاهتمام الشديد بالوقف الإسلامي... وحرص المماليك على تنوع مصادر الوقف حتى يبقى رافدا قويا يعزز وجود مؤسسات الوقف، لذا حرصوا على الإكثار من وقف الحوانيت والمزارع والخانات والأموال وغيرها تقربا لله، وحذا حذوهم نساؤهم... فكل من لديه من سلاطين المماليك أرض أو عقار أو مال ثابت أو منقول في ذلك العصر كان يتطلع لوقفه لسبب أو لآخر، كما أن بعض السلاطين وجد في الوقف سبيلا للمحافظة على أملاكهم، وتأمين مورد دائم لأنفسهم وأولادهم"[٢]، وكان أكثر السلاطين اهتماما بالوقف هو السلطان الظاهر بيبرس وما عمر من الأوقاف في عصره فاق ما عمره سلاطين المماليك بأجمعهم[٣].

قال ابن تغري بردي عن الظاهر بيبرس: "وعمّر جوامع ومساجد بالساحل يطول الشرح في ذكرها حذفتها خوف الإطالة، وبُني في أيامه بالديار المصريّة ما لم يبن في أيام الخلفاء المصريّين، ولا ملوك بنى أيّوب من الأبنية والرّباع والخانات[٤] والقواسير[٥] والدّور والمساجد والحمامات"[٦].

وهذا الأمر قد أثر على الحياة العلمية بشكل كبير، قال ابن خلدون (ت٨٠٨هـ/١٤٠٦م) –رحمه الله–:"...ونحن لهذا العهد نرى أنّ العلم والتّعليم إنّما هو بالقاهرة من بلاد مصر لما أنّ عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف من السّنين... وأكّد ذلك فيها وحفظه ما وقع

---

(1) إبراهيم، دراسات تاريخية، ص١٢٣.

(2) الزاملي، الأوقاف في فلسطين في عهد المماليك، ص٦٢.

(3) المصدر السابق نفسه، ٦٢.

(4) تقدم أن الرباع تطلق على الدور والمنازل، وأما الخانات فهي جمع خان وهو الفندق بلغة أهل الشام، الزبيدي، تاج العروس، ج٢٦، ص٣١٦.

(5) القواسير جمع قيسارية وهي السوق، ويطلق على سوق الخضار تحديدا. دُوزِي، تكملة المعاجم العربية، ج٨، ص٤٣٥.

(6) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، دار الكتب، مصر، بدون سنة نشر، وسأعتمد في التوثيق هذه الطبعة إلى آخر الرسالة إن شاء الله، ج٧، ص١٩٦.

لهذه العصور بها منذ مائتين من السّنين في دولة التّرك من أيّام صلاح الدّين بن أيّــوب وهلــمّ جرّا، وذلك أنّ أمراء التّرك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلّفونه من ذرّيّتهم لما له عليهم من الرّقّ أو الولاء، ولما يخشى من معاطب الملك ونكباتــه، فاســتكثروا مــن بنــاء المدارس والزّوايا والرّبُط[1]، ووقفوا عليها الأوقاف المغلّة يجعلون فيها شركا لولدهم ينظر عليها أو يصيب منها، مع ما فيهم غالبا من الجنوح إلى الخير والتماس الأجور في المقاصد والأفعال، فكثرت الأوقاف لذلك وعظمت الغلات والفوائد وكثر طالب العلم ومعلّمه بكثرة جرايتهم منهــا، وارتحل إليها النّاس في طلب العلم من العراق والمغرب ونفقت بها أســواق العلــوم وزخــرت بحارها، والله يخلق ما يشاء"[2].

وكان للأوقاف في عصر المماليك أثر عظيم في استمرار الحيــاة العلميــة وانتعاشــها وسيرها في الطريق الصحيح ولعل السر الأكبر الكامن وراء النهضة الفكرية يعود إليها، حيــث كانت المورد الأول لكل المؤسسات والفعاليات العلمية"[3].

وقد عرفت الأوقاف في عصر المماليك ثلاثة أنــواع: أولهــا الأحبــاس[4]، ويترأســها دوادار[5] الــسلطان، ويشتمل هذا النوع على أراض من أعمال مصر خصصت للقيام بمصالح المــساجد والزوايا ونحوها من جهات البر، وثانيها : الأوقــاف الحكميــة بمــصر والقــاهرة، ويترأسها قاضي القضاة الشافعي، ويقال لمن يلي هذا النوع ناظر الأوقــاف، ويــشتمل علــى الأوقاف المحبوسة على الحرمين، وعلى الصدقات والأسرى وأنواع القرب،والثالث هو الأوقاف الأهلية، ولها ناظر خاص؛ وهو من أولاد الواقف أو القاضــي، ويشتمل هذا النوع على أراضٍ

---

(1) الرُبُط: جمع رباط وهو المكان المسبل للأفعال الصالحة والعبادة، وصار يطلق على بيت الصوفية ومنزلهم، ولو قيل الرباط هو الزاوية لقيل نعم. كرد علي، محمد (ت ١٣٧٢هــــ/١٩٥٣م)، خطــط الــشام، مكتبــة النوري، دمشق، ط٣، ١٤٠٣هــ، ١٩٨٣م، ج٦، ص١٣٤.

(2) ابن خلدون، العبر، ج١، ص٥٤٨-٥٤٩.

(3) النهار، عمار محمد ، الأوقاف الإسلامية وأثرها على النهضة العلمية في عصر المماليــك، بحــث مــصور ومنشور على الإنترنت، ١ /http://iefpedia.com/arab/wp-content/uploads/2011/05

(4) تقدم أن الوقف هو حبس المال لوجه الله بشكل عام، قال القلقشندي:" جمع حبس وهو الوقف... إلى أن كانت وزارة الصاحب بهاء الدين ابن حنا في سلطنة الظاهر بيبرس البندقداري، فأفرد للجوامع والمساجد والربط والزوايا ونحو ذلك رزقا وقصر تحدث ناظر الأحبــاس ومباشــريه عليهــا، وأفــردت الأوقــاف بنــاظر ومباشرين"، القلقشندي، أحمد بن علي، (ت٨٢١ هــ / ١٤١٨م)، صبح الأعشى في صــناعة الإنــشا، دار الفكر، دمشق،١٩٨٧م، تحقيق: يوسف علي طويل، ج١١، ص٢٥٢-٢٥٣.

(5) دوادار: فارسية معناها حامل الدواة،وفي عهد المماليك أطلق على كاتب السلطان، الشخص الــذي يتــولى إرسال الرسائل من السلطان، وإلى السلطان من الرعية أو السفراء، وهو دُوزي، تكملة المعــاجم العربيــة، ج٤، ص٤٢٨.

من مصر والشام وبلاد أخرى مقررة، وهي موقوفة لــصالح الزوايــا والمــدارس والمــساجد والمقابر[(١)].

أولاً: الوقف عند نساء السلاطين:

ذكرنا – فيما سبق – أن طغاي زوجة الناصر محمد بن قــلاوون وقفــت وقفــاً علــى المدرسة الناصرية، وأمرت أن يُفرّق فيه الخبز على الفقراء[(٢)]؛ وكذلك تقدم الحديث عن بركــة خاتون (أم السلطان الأشرف) التي بنت العمارة المسماة عمارة أمّ السلطان، وهي عبــارة عــن سوق كبير فوقه دور من عدة طوابق لسكن العامّة، وأوقفت ذلك كله على مدرســتها المــسماة (مدرسة أم السلطان) فتنفق على المدرسة والأساتذة والشيوخ وطلاب ويجري العلم وما يلــزم للعملية التعليمية[(٣)].

١- الخوند الكبرى طغاي، زوجة السلطان الناصر محمد:

وقد سبق الحديث عنها مفصلا، وأما ذكر وقفها بالتفصيل فقد عمرت خانقــاه[(٤)]رجــاء الأجر والثواب، وأنفقت الكثير على بنائها وفرشها وتجهيزها، وأوقفت عليها الكثير من الأوقاف للمحافظة عليها وصيانتها، وكانت فيها جناح خاص بالنســاء، فكانــت بمثابــة الملجــأ لهــن والمكــان الأمــن لأداء الصلاة والعبادة، وخصوصا جواريها اللائي أقمن بها، حتى بعد موتها، فضــمنت لهن حيــاة ومكانــاً أمنــاً تقــديرا لجهودهن وحفاظا عليهن مــن البيع بعد وفاتها، وكان يوزع الخبر في الخانقاه على الفقراء مجانا من ريع تلك الأوقاف[(٥)].

٢- الست الجليلة الكبرى خوند تتر الحجازية:

ابنة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، زوجة الأمير بلكتمــر الحجــازيّ وبــه عرفت[(٦)]، وهي التي أنشأت المدرسة الحجازية بالقاهرة، وجعلت بهذه المدرسة درســا للفقهــاء الشافعية ودرسا للفقهاء المالكية، وجعلت بها منبرا يخطب عليه يوم الجمعة، وعينت لها إمامــا للصلوات الخمس، وجعلت بها خزانة للكتب، وأنشأت بجوارها قبة من داخلهــا لتــدفن تحتهــا، وبالفعل دفنت فيها، وعينت في هذه القبة عدّة قرّاء يتناوبون قراءة القرآن الكريم ليلا ونهــارا،

---

(1) النهار، الأوقاف الإسلامية، ص٢.

(2) المقريزي، الخطط، ج٤، ص٣٠٠.

(3) المصدر نفسه، ج٤، ص٣٥٧.

(4) خانقاه جمعها خوانق: وهي كلمة فارسية معربة عن الخان وهو البيت وأضحت في العصر المملوكي تشابه المسجد والمدرسة وبيت الصوفية لتطور العمارة وما رافقه من تطور مفهوم الخانقاه ووظيفتها، مرتضى الزبيدي، تاج العروس، ج٣٦، ص٣٧٤؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٤١٧.

(5) المقريزي، الخطط، ج٤، ص٢٩٩.

(6) ولم أجد من ترجمها، أكثر مما ذكر المقريزي في الخطط.

وجعلت بجوار المدرسة مكتبا للسبيل فيه عدّة من أيتام المسلمين، ولهم معلم يعملهم القرآن الكريم ويؤدبهم، وكان لكل طالب في كلّ يوم خمسة أرغفة من الخبز الجيد، ومبلغ من المال يوميا، ويعطى كل منهم كسوتين للشتاء وأخريين للصيف، ووقفت على كل ذلك عدّة أوقاف عظيمة يصرف منها على الموظفين، وكان يفرّق فيهم كل سنة أيام عيد الفطر الكعك والخشكنانك، وفي عيد الأضحى اللحم، وفي شهر رمضان يطبخ لهم الطعام وجعلت بجوارها مكتبا للسبيل، فيه عدة من أيتام المسلمين، ولهم مؤدب يعلمهم القرآن الكريم، ولكل من الطلبة خمس أرغفة خبس يوميا من الخبز الجيد النقي، ومبلغ من الفلوس وكسوتين للصيف وكسوتين للشتاء[١].

وأوقفت على المدرسة الحجازية قصرها الذي اشترته بجوار المدرسة، وبعد موتها صار يسكنه الوزراء والموظفون الكبار بالأجرة، والأجرة ترجع إلى المدرسة[٢].

٣- خوند شرين:

هي شيرين بنت عبد الله الرومية، أم الملك الناصر فرج[٣]، ابن السلطان الملك الظاهر برقوق أول سلاطين العصر المملوكي الثاني (ملوك الجاركسة)، وقد كانت أم ولد للملك الظاهر برقوق، وهي من المماليك الأتراك، وقد عاشت في عصر المماليك البحرية وماتت سنة ٨٠٢هـ/ ١٤٠٠م، في بدايات عصر البرجية ولها معروف ومآثر حسنة وأوقاف حتى خارج مصر، فقد جددت بمكة رباط الخوزي، ووقفت عليه وقفا، وأصلحت ما كان تهدم منه.

ووقفت أوقافاً بمصر منها وقفها على مقبرة ولدها الناصر، وعلى عدة قراء بمدرسة السلطان الظاهر برقوق في القاهرة[٤].

٤- طلنباي زوجة الملك الناصر:

ويقال لها طلنباي وطلوبية[٥] ابنة طفاجي ابن هندر بن بكر بن دوشي خان ابن جنكزخان، تزوجها السطان الناصر من بيت مُلك النتر سنة ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م، على ثلاثين ألف دينار، منها عشرون ألفا معجلة، وماتت سنة ٧٦٥هـ / ١٣٦٤م، ودفنت بتربتها خارج

---

(1) المقريزي، الخطط، ج٤، ص٢٣١.

(2) المصدر نفسه، ج٣، ص١٣٠.

(3) الملك الناصر: هو ابن برقوق المصرىّ المولد والمنشأ، سلطان الديار المصرية، والبلاد الشامية، والأقطار الحجازية، وهو السلطان السادس والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية، والثانى من الجراكسة، ولد سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م، يوم الجمعة النصف من شوّال ٨٠١هـ/ ١٣٩٩م، ومات سنة ٨١٥هـ/ ١٤١٢م، ابن العماد العكري، شذرات الذهب، ج٩، ص١٦٧.

(4) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٦، ص٣١٧؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص٧٠.

(5) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٢٥؛ المقريزي، الخطط، ج٣، ص١٢٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص٨٤.

باب البرقية بجوار تربة خوند طغاي أم أنوك[١]، وبقيت عنده مسموعة الكلمة محظية لديه حتى إنه مال إليها بكلياته وجزئياته، وسلمها أمور داره، واعتمد بذلك على حسبها ونسبها، ولها أوقاف كثيرة من المساجد والمدارس وغير ذلك[٢].

٥- القهرمانة[٣] مسكة:

جارية السلطان الناصر محمد بن قلاوون، نشأت في داره وصارت قهرمانة في منزله، يقتدى برأيها في عمل الأعراس السلطانية والأعياد والمواسم، وترتيب شؤون حريم السلطان، وتربية أولاده، وطال عمرها وصار لها من الأموال الكثيرة والسعادات ما عجز عن وصفه المؤرخون، وكانت كثيرة البر والمعروف، واشتهرت جدا في مصر وخارجها، وتبوأت منزلة عظيمة عند السلطان، وكانت مسموعة الكلمة عنده وعند حريمه، وذلك لحسن خدمتها وصيانتها لبيت السلطان، ولها أوقاف كثير منها المساجد ومنها تكايا[٤] ومنها مدارس وأشياء أخرى لم يفصلها المؤرخون[٥].

ومن هذه الأوقاف:

قصر الحجازية:

بدأ عمارته الأمير سيف الدين قوصون[٦]، فشرع في عمارة سبع قاعات لكل قاعة اصطبل ومنافع ومرافق، وكانت مساحة ذلك عشرة أفدنة، فمات قوصون قبل أن يتم بناء ما أراد من ذلك، فصار يعرف بقصر قوصون إلى أن اشترته خوند تتر الحجازية ابنة الملك الناصر محمد بن قلاوون عمرته عمارة ملوكية وتأنقت فيه تأنقاً زائداً، وأجرت الماء إلى أعلاه، وعملت تحت القصر اصطبلاً كبيراً لخيول خدامها، وساحة كبيرة يشرف عليها من شبابيك حديد، فجاء شيئاً عجيباً حسنه، وأنشأت بحرارة مدرستها آنفة الذكر المعروفة بالمدرسة الحجازية، وجعلت

---

(1) المقريزي، الخطط، ج٣، ص١٢٣.

(2) زينب فواز، زينب بنت علي بن حسين بن عبيد الله، (ت ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م)، الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، ١٣١٢هـ، ٢٧٧.

(3) القهرمانة تطلق على عدة نساء، وهي هنا مدبرة البيت ومتولية شؤونه، وتطلق أيضا ويراد بها الجارية، وتطلق ويراد بها المرأة غير المحترمة (الزانية)، دُوزي، تكملة المعاجم العربية، ج٨، ص٤٠٣.

(4) التكايا جمع تكية وهي تركية معناها الزاوية أو الخانقاه، كرد علي، خطط الشام، ج٦، ص١٣٤.

(5) المقريزي، الخطط، ج٣، ص٢٠٩-٢١٠؛ زينب فواز، الدر المنثور، ص٥١٢.

(٦) تقدمت ترجمته عند الحديث عن زواجه من ابنة الملك الناصر.

هذا القصر من جملة ما هو موقوف عليها، وبعدما ماتت صار يسكنه الوزراء والموظفون الكبار بالأجرة والأجرة ترجع إلى المدرسة[١].

المدرسة الحجازية بالقاهرة:

بنتها الست الجليلة الكبرى خوند تتر الحجازية ابنة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، زوجة الأمير بتكتمر الحجازي وبه عرفت[٢]، وهي التي أنشأت المدرسة الحجازية بالقاهرة، وجعلت بهذه المدرسة درساً للفقهاء الشافعية ودرساً للفقهاء المالكية، وجعلت بها منبراً يخطب عليه يوم الجمعة، وعينت لها إماماً للصلوات الخمس، وجعلت بها خزانة للكتب، وأنشأت بجوارها قبة من داخلها لتدفن تحتها، وبالفعل دفنت فيها، وعيدت في هذه القبة عدة قراء يتناوبون قراءة القرآن الكريم ليلاً ونهاراً وجعلت بجوار المدرسة مكتباً للسبيل فيه عدة من أيتام المسلمين، ولهم مؤدب يعلمهم القرآن الكريم ولكل من الطلبة خمس أرغفة خبس يومياً من الخبز الجيد النقي، ومبلغ من الفلوس وكسوتين للصيف وكسوتين للشتاء[٣].

رباط الخوزي:

والرباط هو المكان المعمول للأفعال الصالحة والعبادة، وصار يطلق على بيت الصوفية ومنزلهم، ولو قيل الرباط هو الزاوية لقيل نعم[٤]، ورباط الخوزي بنته خوند شيرين بنت عبد الله الرومية، أم الملك الناصر فرج بن برقوق ثاني سلاطين المماليك الجراكسة[٥]، وقد كانت أم ولد الملك الظاهر برقوق أول ملوك الجراكسة، وهي من المماليك الأتراك، وقد عاشت في عصر المماليك البحرية وماتت سنة (٨٠٢هـ/١٤٠٠م)، في بدايات عصر البرجية ولها معروف ومآثر حسنة وأوقاف حتى خارج مصر، فقد جددت بمكة رباط الخوزي، ووقفت عليه وقفاً، وأصلحت ما كان تهدم منه.

ووقفت أوقافاً بمصر منها وقفها على مقبرة ولدها الناصر، وعلى عدة قراء بمدرسة السلطان الظاهر برقوب في القاهرة[٦].

---

(١) انظر: المقريزي، الخطط، ٣/١٣٠.

(٢) ولم أجد من ترجمتها أكثر مما ذكر المقريزي في الخطط.

(٣) انظر: المقريزي، الخطط، ج٤، ص٢٣١.

(٤) انظر: كرد علي، خطط الشام، ج٦، ص١٣٤.

(٥) تقدمت ترجمته.

(٦) انظر، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٦، ص٣١٧؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص٧٠.

حكر الست حدق:

وكانت حدق من جواري السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، نشأت في داره وصارت قهرمانة لبيت السلطان يقتدي برأيها في عمل الأعراس السلطانية وقد تقدم شيء من ذلك[١]، وحكر الست حدق يعرف أيضاً بالمريس، وكان بساتين، فعرف بالست حدق من أجل أنها أنشأت هناك جامعاً فبنى الناس حوله، وأكثر من كان يسكن هناك السودان، وبه يتخذ، وصار به عدة مساكن وسوق كبير، يحتاج محتسب القاهرة أن يقيم به نائباً عنه للكشف عما يباع فيه من المعايش، وقد كان المريس على غاية من العمارة[٢].

حكر الست مسكة:

وهي جارية السلطان الناصر محمد بن قلاوون، نشأت في داره وصارت قهرمانة في منزله، يقتدى برأيها في عمل الأعراس السلطانية والأعياد والمواسم[٣]، وهذا الحكر بسويقة السباعين يقرب جوار حكر الست حدق، عرفت بالست مسكة لأنها أنشأت به جامعاً، ثم أفرد وصار بستاناً تنقل إلى جماعة كثيرية، فلما عمرت الست مسكة في هذا الحكر الجامع بني الناس حوله حتى صار متصلاً بالعمارة من سائر جهاته، وسكنه الأمراء والأعيان وأنشأوا به الحمامات والأسواق وغير ذلك[٤].

جامع الست مسكة:

وهذا الجامع بالقرب من الخليج الكبير خارج القاهرة، أنشأته الست مسكة جارية الملك الناصر محمد بن قلاون، وأقيمت فيه الجمعة عشر جمادى الآخرة سنة (٧٤١هـ) [٥].

مسجد الوزيرية:

هذا المسجد كان بالقرافة الكبرى، وله منارة بجوار باب رباط الحجازية، وكانت الحجازية واعظة زمانها، وكانت من الخيرات، لها القبول التام، وتدعى أم الخير، وكان لها من الصيت كما كان لابن الجوهري، وكان على غاية من الكرم وحسن الأخلاق والشيم[٦].

---

(١) المقريزي، الخطط، ج٣، ص٢١٠.
(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٠٩.
(٣) المصدر نفسه، ج٣، ص٥٣؛ السلوك، ج٣، ص٣١٧.
(٤) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٠٩-٢١٠.
(٥) المصدر نفسه، ج٤، ص١٣٨.
(٦) المصدر نفسه، ج٤، ص٣٤٠.

ثانياً: مستوى معيشة المرأة:

لقد أصبحت دولة المماليك البحرية الدولة الأولى في بلاد الإسـلام، وذلـك أن الحالـة السياسية كانت راسخة مستقرة، وكانت دولة المماليك قوية عسكريا ما انعكس على كافة جوانب الحياة في مصر ومدنها، وهي محط أنظار المسلمين وغير المسلمين من شتى البقاع خـصوصا بعد سقوط بغداد وقتل الخليفة المستعصم بالله سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، وشغر منـصب الخلافـة ثلاث سنين ونصف سنة، حتى عادت الخلافة سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م بعد سنة من تولي الظاهر بيبرس سلطنة مصر؛ وأصبحت تمثل باقي الأقطار والأمصار الإسـلامية، "وبـدأت الأهميـة السياسية للقاهرة تتصاعد مع مرور الزمن حتى صارت العاصمة الفعلية للعالم الإسـلامي فـي عصر سلاطين المماليك بعد أن أحيا السلطان الظاهر بيبرس الخلافـة العباسـية ... وبعـد أن أصبحت موئلا للهاربين من تفاقم الأحوال في مشرق العالم الإسلامي ومغربه علـى الـسواء، ولهذا ظلت القاهرة هدفا للرحالة المسلمين والرحالة الأوربيين طوال تلك الفتـرة، وإن اختلفـت دوافع الرحالة المسلمين عن دوافع الرحالة الأوربيين بطبيعة الحال"[١].

وقد عاش ملوك مصر حياة البذخ والترف بما تحمل الكلمة من معنـى، وقـد أخـذت نساؤهم من هذا الترف بنصيب وافر، بل إن غالب أهل السوق في مصر كان مـن النـساء[٢]، وقال ابن الحاج (ت ٧٣٧هـ / ١٣٣٦م):"... مواسم أهل الكتاب التي شـاركهم فيهـا بعـض المسلمين وقد اتخذت فيه أشياء لا تنبغي. فمنها خروج النساء في ذلك اليـوم لـشراء البخـور والخواتم وغيرهما، فتجدهن في ذلك اليوم في الأسواق أكثر من الرجال فمن يمر بالسوق مـن الرجال لا يقدر على المشي فيه إلا بمشقة لزحمة النساء وقد يزاحمهن من لا خير فيه. وقد تقدم في غير ما موضع ما في خروجهن واجتماعهن بالرجال من المفاسد التـي لا دواء لهـا فـي الغالب. ولو أن رجلا منع أهله من الخروج في ذلك اليوم لوقع التشويش بينهما وقد يئول الأمر إلى الفراق"[٣]، وهذا الأمر يدل بلا شك على أن المرأة كانت تعيش مستوى مرموقا.

فقد كانت شجر الدر حظية عند الملك الصالح أيوب، بل صارت ملكة بعد ذلك، فلا تسل عن مستوى معيشتها، ولم أجد أبلغ مما قاله ابن تغري بردي:" لا زالت فى عظمتها من الحـشم

---

(1) عبده، عصر سلاطين المماليك، ص٢٥، ٥٧.

(2) المصدر نفسه، ص٦٨.

(3) ابن الحاج، محمد بن محمد بن محمد المالكي، (ت٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م)، المدخل، مكتبة دار التراث، القـاهرة، بدون طبعة ولا سنة نشر، ج٢، ص٥٤.

والخدم وإليها غالب تدبير الديار المصريّة فى حياة سيّدها الملك الصالح وفـــى مرضـــه وبعـــد موته"[١].

وقد كثرت قصص زوجات السلاطين التي كانت تعيش مستوى رفيع قد لا نتصوره في زماننا، فقد ذكر ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة أن السلطان الناصـــر اســـتدعى الحـــريم السلطانىّ إلى برّ الجيزة، فطرد سائر الناس من الطّرقات، وأغلقت الحوانيت، ونزلـــت خونـــد طغاى زوجة الناصر وأمّ ولده آنوك، والأمير أَيْدُغْمُش المتوفى ٧٤٣هـــ/ ١٣٤٢م[٢]، ماش يقود عنان فرسها بيده وحولها سائر الخدّام مشاة منذ ركبت من القلعة إلى أن وصلت إلى النيل[٣].

وقد أجمل الصفدي –رحمه الله– فيها حال معيشتها بقوله:" رأت من السعادة، ما لا يراه غيرها من زوجات ملوك مصر الذاهبات، وتنعمت في ملاذ ما وصلت إليها يد النابهـــات؟؟"[٤]، وقال ابن تغري بردي عنها لما توفيت:"وتركت مالا كثيراً جدّا، من ذلك ألف جارية، وثمـــانون طواشيا[٥]"[٦]، وقد خرجت الخوند طغاي للحج، قال الصفدي واصفا ذلك:" حج بها القاضي كريم الدين الكبير[٧]، واحتفل بها، وحمل لها البقل في محائر[٨] طين على ظهور الجمال، وأخذ لهـــا البقر الحلابات، تكون معها في الطريق؛ ليؤخذ لبنها ويجبن، ويصنع لها في الغـــداء والعـــشاء المقلو السخن"[٩].

---

[1] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٧٣.

[2] أَيْدُغْمُش: هو الأمير الكبير علاء الدين أيدغمش بن عبد الله الناصرىّ الأمير آخور، ثم نائب حلب ثم نائـــب الشام، توفي سنة ٧٠٠هـــ/ ١٣٠٠م، الصفدي، أعيان العصر، ج١، ص٦٥٢؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٩، ص٢٧٤.

[3] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٧٣.

[4] الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٦٠٠.

[5] الطواشي: لفظة تركية، أصلها بلغتهم طابوشي، فتلاعبت بها العامة وقالت طواشي، وهو الخصيّ، ثم صـــار يطلق على الخدّام الملوكية الذين يعرفون في الدولة التركية بالطواشية، وأحدهم طواشي، ولهؤلاء الخدّام في كلّ يوم ما يكفيهم من الخبز النيء واللحم المطبوخ، وفي كلّ شهر من المعاليم الوافرة ما فيه غنيـــة لهـــم، وكان لهم حرمة وافرة وكلمة نافذة وجانب مرعيّ، المقريزي، الخطط، ج٤، ص٢٢٧.

[6] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٣٨.

[7] كريم الدين الكبير: عبد الكريم بن هبة الله بن السديد المصري، القاضي النبيل الجليل، أبو الفضائل الكبيـــر، وكيل السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ومدبر دولته بلغ فوق ما يبلغه الوزراء ونال فوق ما ينالـــه الكتاب من الوجاهة والحرمة والتقدم، توفي سنة ٧٢٤هـــ، الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٩، ص٦٦–٧٠.

[8] المحارة هي الصندوق الذي تركبه الأنثى على ظهر الجمـــل. آن دُوزي، تكملـــة المعـــاجم العربيـــة، ج٣، ص٣٦٦.

[9] الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٦٠١.

وقد سبقت ترجمة بركة خاتون (أم الملك الأشرف)، وقد ذكر قصة حجها عرضا لبيان دورها الاجتماعي، ولكن قصة حجها تدل على مستوى المعيشة الرفيع الذي حظيت به، قال ابن تغري بردي:"ولما حجت في سنة سبعين وسبعمائة، توجهت في أبهة عظيمة إلى الغاية، وفي خدمتها الأمراء والخاصكية[١] والخدام"[٢]، وقال المقريزي:"وحجت في سنة سبعين وسبعمائة بتجمل كثير وبهرج زائد، وعلى محفتها العصائب السلطانية والكوسات[٣] تدق معها، وسار في خدمتها من الأمراء المقدّمين... ومائة مملوك من المماليك السلطانية أرباب الوظائف، ومن جملة ما كان معها قطار جمال محملة محائر قد زرع فيها البقل والخضراوات إلى غير ذلك مما يجل وصفه"[٤].

وهذه اتفاق العوادة المغنية، بعد أن أهديت لبيت الملك الناصر محمد بن قلاوون أحبها ابنه إسماعيل الملك الصالح، يقول ابن تغري بردي:" وكان الملك الصالح سلطانا ساكنا عاقلا قليل الشرّ كثير الخير، هيّنا ليّنا بشوشا... ولم يزل مثابرا على فعل الخير حتّى توقّى وشغف مع ذلك بالجواري السّود، وأفرط فى محبة اتّفاق العوّادة وفى العطاء لها، وقرّب أرباب الملاهي، وأعرض عن تدبير الملك بإقباله على النساء والمطربين، حتّى كان إذا ركب إلى سرحة[٥] سرياقوس[٦] أو سرحة الأهرام ركبت أمّه في مائتي امرأة الأكاديش[٧] بثياب الأطلس[٨] الملوّن وعلى رؤوسهن الطراطير[٩] الجلد البرغالي[١٠] المرصّعة بالجوهر واللآلئ، وبين أيديهنّ الخدّام الطواشية من القلعة إلى السّرحة، ثم تركب حظاياه الخيول العربية ويتسابقن ويركبن تارة

---

(1) الخاصّكي: وأصلها فارسي من اللفظ خاصكان هو نديم الملك والمقرب إليه، وكانت تطلق على الأمراء المقربين من السلطان في دولة المماليك، ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العمري، (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٤٢٣ هـ، ج٣، ص٤٣٦.

(2) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، ص٣٥٦.

(3) الكوسات جمع كوس وهو الطبل الكبير، دُوزي، تكملة المعاجم العربية، ج٩، ص١٥.

(4) المقريزي، السلوك، ج٤، ص٣٣٠.

(5) السرحة هي دوحة واسعة يحل تحتها الناس في الصيف، ويبنون تحتها البيوت، الزبيدي، تاج العروس، ج٦، ص٤٦٢.

(6) سرياقوس بلدة من بلدات القاهرة، الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص٢١٨.

(7) أكدايش جمع إكديش وهي بالفارسية إكْدِش وهو الحصان الهجين (غير الأصيل)، فاتر الهمة ويستعمل للحمل ولجر العربات فقط، دوزي، تكملة المعاجم العربية، ج٩، ص٤٨.

(8) الأطلس الثياب الرقيقة (الساتان)، أو هو نسيج من الحرير، دُوزي، تكملة المعاجم العربية، ج٧، ص٦٥؛ المعجم الوسيط، ج٢، ص٥٦١.

(9) الطراطير: جمع طرطور وهو القلنسوة طويلة الرأس، الزبيدي، تاج العروس، ج١٢، ص٤٢٥.

(10) برغالي: هي تصحيف بلغاري، وهو جلد الفرس المبطن بجلد الذئب، ابن بطوطة، الرحلة، ج٢، ص٢٥٩.

بالكامليّات[١] الحرير ويلعبن بالكرة، وكانت لهنّ فى المواسم والأعياد وأوقات النّزهة أمور مـــن هذا النّموذج، واستولى الخدّام والطواشيّة فى أيامه على أحوال الدولة"[٢].

قال ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢ هــ/١٤٤٩م) عن اتفاقه العوادة: "فحظيت عند الصالح إسماعيل ابن الناصر وولع بها، فأكثر لها من الأنعام حتى اختصها بنفيس الجواهر، وولدت منه ثم شغف بها بعده أخوه الكامل وولدت منه أيضا... ويقال أنه عمل لها عند ولادتها من الكامـــل ...مهد المولود وما يناسبه فبلغ جميع ذلك ستة وثمانين ألف دينار مصرية، وأحيط بها في ولاية المظفر حاجي فوجد لها أربعون بذلة مكللة بالجواهر واللآلىء وثمانون مِقنعة[٣] أقلهـــا بمـــائتي دينار وأكثرها بألف ثم أخرجت من القلعة، ثم استعادها المظفر وتزوجها وأعطاها أضعاف مـــا كان يعطيها أخواه وهام بها فأفرط، ويقال أن عصبتها بلغت قيمتها ألف دينار مصرية لاشتمالها على الجواهر النفيسة التي حصلتها من ثلاثة سلاطين ثم أخرجت في أيام الناصر حسن وقطعت رواتبها وتزوجها الوزير موفق الدين هبة الله بن السعيد إبراهيم ورتب لها في السنة ســـبعمائة ألف درهم إلى أن مات عنها"[٤]، وما جاء في أخر الكلام أن قيمة عصبة اتفاق ألف دينار غيـــر صحيح والصحيح مائة ألف ولعلها ساقطة من النسّاخ[٥]، والحقيقة أن عصبتها بلغت قيمتها مائة ألف دينار مصرية كما قال ابن تغري بردي[٦].

وقال أيضا عن إنفاق السلطان الكامل على اتفاق:"...ونالت عندهما[٧] من الحظّ والسعادة ما لا عرف فى زمانها لامرأة، حتّى إن الكامل عمل لها دائر بيـــت طولـــه اثنتـــان وأربعـــون ذراعا[٨] وعرضه ستة أذرع، دخل فيه خمسة وتسعون ألف دينار مصرية...وكان لها أربعـــون

---

(1) الكامليات جمع كاملية وهي نوع من الملابس الفاخرة الفضفاضة الواسعة، دُوزي، تكملة المعـــاجم العربيـــة، ج٩، ص١٤٢؛ عبد الرزاق، المرأة في مصر المملوكية، ١٨١.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٣، ص٢١٨.

(3) المِقنعة: هي ما تقنع (تغطي) به المرأة رأسها ومحاسنها، مرتضى الزبيدي، تاج العروس، ج٢٢، ص٩١.

(4) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١، ص٨٠.

(5) لقد راجعت طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية في الهند، وكذلك لطبعة دار الجيل ببيروت، فوجدت فيهـــا مائة بدل مائة ألف، وكذلك في الطبعة المعتمدة في هذه الرسالة وهي دار إحياء التراث العربي في بيروت، ولكن طبعة دار الإحياء قد نبهت على هذا الخطأ في حاشية الصفحة.

(6) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص١٥٦.

(7) المراد السلطان الكامل ومن قبله أخوه السلطان الصالح أولاد الناصر محمد.

(8) الذراع هو ذراع الإنسان وهي من المرفق إلى طرف الأصابع، وقدره المجمع اللغوي بـــ٦٤ سم، مرتـــضى الزبيدي، تاج العروس، ج٢١، ص٥؛ المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبـــراهيم مـــصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)، دار الدعوة، مصر، بدون سنة نشر، ج١، ص٣١١.

بذلة ثياب مرصّعة بالجواهر، وستة عشر مقعد زركش، وثمانون مِقنَعة، فيها ما قيمته عشرون ألف درهم وأشياء غير ذلك"[١].

وبعد السلطان الكامل جاء أخوه المظفر حاجي وأخرج اتفاق من القلعة وصادر أموالها، وقيل أيضا عن زواج المظفر حاجي منها: "ونثر عليها الذهب، ثم ضربت بعودها وغنّت فـأنعم السلطان عليها بأربعة فصوص وستّ لؤلؤات، ثمنها أربعة آلاف دينار"[٢].

ورأى أمراء السلطان المظفر حاجي أن السلطان قد انشغل باللهو مع الجواري عن أمور الدولة فبدأ الغضب يراودهم، وبلغ السلطان الأمر فاستبق الأحداث واختصر الشر فأرسل إلـى خادمه الرومي ليخرج اتفاق خارج القلعة، قال ابن تغري بردي:" وفى هذه الأيام رسم السلطان للطواشي مقبل الرومي[٣] أن يخرج اتّفاق العوّادة وسلمى والكركية[٤] حظايا السلطان من القلعة بما عليهن من الثياب، من غير أن يحملن شيئا من الجوهر والزّركش وأن تقلع عصبة اتفاق عن رأسها ويدعها عنده؛ وكانت هذه العصبة قد اشتهرت عند الأمراء وشنعت قالتها[٥]، فإنـه قـام بعملها ثلاثة ملوك الإخوة من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون: الملك الـصالح إسـماعيل والملك الكامل شعبان والملك المظفّر حاجّى هذا، وتنافسوا فيها واعتنوا بجواهرها حتّى بلغـت قيمتها زيادة على مائة ألف دينار مصريّة"[٦].

إن في هذه الرواية ما يدل على مستوى المعيشة الرغيد لجواري السلاطين، فقد أغـدق السلطان على جواريه وأسرف في الملابس والجواهر، إلى حد أن توغر صدر الأمـراء علـى السلطان، وفشا ذكر ذلك بين الناس.

وقد لخص المقريزي مستوى معيشة نساء السلاطين وبناتهم وجواريهم عندما تحدث عن الملك الناصر بن قلاوون بقوله: "وجمع من المال والجواهر واللؤلؤ ما لم يجمعه ملك من ملوك الترك قبله... وجهز إحدى عشرة ابنة له بالجهاز العظيم فكان أقلهن جهازا بثمانمائة ألف دينار:

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص١٥٠.

(2) المصدر نفسه، ج١٠، ص١٥٤.

(3) مقبل الرومي: هو زين الدين مقبل الرومي الشهابي شيخ الخدام بالحرم النبوي. أصله من خدام الملك الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون وجانداره، توفي سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٣م. المقريزي، السلوك، ج٥، ص٣٣٥.

(4) لم أعثر ترجمة لهما.

(5) القالة لها معان عدة منها حسن القول وقد مر في الفصل الأول، وأما هنا فالراجح أنها القول الفاشي في الناس خيرا كان أو شرا، مرتضى الزبيدي، تاج العروس، ج٣٠، ص٣٠١.

(6) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص١٥٦.

منها قيمة بشخاناه[١] ودار بيت وما يتعلق به بمائة ألف دينار، وبقية ذلك ما بين جواهر ولآلئ وأواني ونحو ذلك، ثم إنه زوجهن من مماليكه ... وجهز سراريه[٢] وجواريه ومن يحسن بخاطره من النساء كل واحدة بنحو ذلك وبأكثر منه"[٣].

فانظر إلى ذلك الغنى والبذخ، وإنك لترى الغنى الفاحش لنساء السلاطين مع كثرة تصدقهن وأوقافهن وعطاياهن!!، ولكن لا شك أن هذا المستوى من المعيشة ليس مطّردا في كل النساء فلا شك أن مستوى معيشة نساء العوام دون ذلك بكثير الملوك، ولكن عموماً فإن نساء مصر كن يعشن عيشة هنية ومستوى رفيعا بالإجمال، فقد قال المقريزي:" ...وذلك أن الخواتين نساء السلطان وجواريهن أحدثن قمصانا طوالا تَخُبّ[٤] أذيالها على الأرض بأكمام سعة الكم منها ثلاثة أذرع فإذا أرخته الواحدة منهن غطى رجلها وعرف القميص منها فيما بينهن بالبهطلة ومبلغ مصروفه ألف درهم مما فوقها، وتشبه نساء القاهرة بهن في ذلك حتى لم يبق امرأة إلا وقميصها كذلك...وأن خف المرأة وسرموزتها[٥] بخمسمائة درهم"[٦].

وقد ذكر المقريزي نوعا من الثياب لبسته نساء مصر في عهد المماليك وبعد ذلك قال:" وعملوا نموذجات من ثياب الحرير، وتطريز المناديل عرفت بجرّ العمود، وكانت الأنفس حينئذ منبسطة، والقلوب خالية من الهموم وللناس إقبال على اللهو لكثرة نعمهم، وطول فراغهم"[٧].

وقال في موضع آخر عن توسيع الثياب: "وبالغت النساء في سعة القمصان... فيكون مساحة القميص زيادة على ثلاثة وعشرين ذراعا، وفحش هذا حتى تشبه عوام النساء في اللبس بنساء الملوك والأعيان"[٨].

---

(1) بشخاناة: أصلها فارسي (بَشَه خانه)، مفردها بشخانة وهي الناموسية وزخارف السرير أو الغرفة لصيانة الحشايا والمخدات، دُوزي، تكملة المعاجم العربية، ج١، ص٣٤٨.

(2) السراري: جمع سُرِّيّة بضم السين وكسرها وهي الجارية المتخذة للنكاح، اشتقت من السر وهو الجماع، قال تعالى في البقرة (ولكن لا تواعدوهن سرا)، ٢٣٥، ابن الأنباري، محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، (ت ٣٢٨هـ/ ٩٤٠م)، الزاهر في معاني كلمات الناس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٢ هـ/١٩٩٢م، تحقيق: حاتم صالح الضامن، ج٢، ص٣١١.

(3) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٣١٢.

(4) تخب أي تسير، الزبيدي، تاج العروس، ج٢، ص٣٢٨-٣٣٠.

(5) السرموزة أو السرموز أو السرموج هو البابوج أو الصندل، دُوزي، تكملة المعاجم العربية، ج٦، ص٦٧-٦٨.

(6) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٤٢٧.

(7) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٨٤.

(8) المصدر نفسه، ج٥، ص٣١٢.

وفي معرض كلامه عما أحدثته النساء في عهد السلطان الناصر بن قلاوون من اللباس والزينة قال:" والأزر الحرير فكانت قيمة إزار المرأة من آحاد النساء ألف درهم عنها نحو الخمسين دينارا مصرية."[1].

ثالثاً: مظاهر الحياة الاجتماعية (اللباس، أدوات الزينة، المهور، الزواج، الطلاق):

أولاً: اللباس:

اللباس نعمة من نعم الله تعالى على ابن آدم، قال تعالى: (يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا، وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ، ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)[2]، وقد نزلت آيات كريمة بينت ما يجب على المرأة أن تلبس في الحياة العامة فقال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)[3]، ورويت أحاديث شريفة تبين التطبيق العملي للباس الواجب على المرأة المسلمة والذي لبسته الصحابيات من المهاجرات والأنصاريات لما كانت تنزل الآيات في موضوع اللباس[4].

وإن لباس كل قوم يعبر عن حضارتهم التي هي مجموع مفاهيم الناس في ذلك المجتمع عن الحياة[5]، والحشمة في اللباس وستر العورات من المفاهيم الإسلامية المعلومة، والمجتمعات في العالم الإسلامي أكثر المجتمعات محافظة على حشمة المرأة إلى يومنا هذا مع كل حملات التغريب والغزو الفكري لهذه المجتمعات[6]، وكذلك فإن لباس الناس في أي مجتمع يعبر عن مستوى معيشتهم من حيث الغنى والفقر، وهذا الأمران هما اللذان يشكلان الشكل العام للباس المرأة في كل مكان أو زمان، ولقد كان للاستقرار الاقتصادي في فترة حكم المماليك البحرية أثر

---

[1] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص١٧٥-١٧٦.

[2] الأعراف، ٢٦-٢٧.

[3] الأحزاب، ٥٩.

[4] الرسوم التوضيحية للباس الرجال والنساء في زمن -النبي صلى الله عليه وسلم- عبد الستار، محمد يونس أبو طلحة، لباس الرسول -صلى الله عليه وسلم- والصحابة والصحابيات -رضي الله عنهم أجمعين-، مطابع الوحيد، مكة المكرمة، ١٤٢٤هـ، ص١٧٩-١٨٨.

[5] اختلف المفكرون في إطلاق لفظ الحضارة، فقد ذهب ابن خلدون إلى أنها التفنن في الترف الذي يتبعه طاعة الشهوات، وصار اليوم يستعمل لفظ الحضارة للدلالة على كل ما ينشئه الإنسان في شتى جوانب الحياة، ابن خلدون، العبر، ٤٦٥؛ حسين، محمد محمد، الإسلام والحضارة الغربية، دار الفرقان، بدون سنة نشر، ص٦؛ النبهاني، تقي الدين محمد بن إبراهيم، نظام الإسلام، ط٦، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م، ص٦٣.

[6] حسين، الإسلام والحضارة الغربية، ص٤١.

كبير على لباس المرأة في المجتمع المصري، وزعم البعض أن المرأة في العصر المملوكي مع يسر الحال والغنى والترف حرصت على إظهار جمالها وإبراز فتنتها[١].

ومن ألبسة النساء الفاخرة قمصان أو عباءة طويلة بدون أكمام تدعى القنادير مفردها قندر وقندورة وهي تغطي جسد المرأة من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها[٢]، ومعها أغطية للرأس تسمى كنابش مفردها كنبوش وهو عبارة عن نقاب أو برقع يغطى به الوجه[٣]، وكانت هذه الثياب تستورد لزوجات الوزراء وزوجات الملوك، فقد ذكر المقريزي أن قافلة قدمت مصر لنائب الشام منجك كانت محملة بالثياب والملابس ومما كان فيها: "...عدة قنادير من حرير مزركش، بتراكيب مرصعة من الجوهر من ملابس النساء، وعدة كنابيش زركش، وعرقيات[٤] زركش برسم الخيل وعدة عُبي من حرير"[٥].

وقد عرفت في مصر ثياب حرير ومناديل أطلقوا عليها اسم جر العمود وذلك نسبة إلى عمودين من الرخام الأبيض وجدا في قصر الزمرد[٦] سنة سبعمائة وبضع وسبعين للهجرة، وجرا إلى المدرسة التي أنشأها السلطان الأشرف شعبان بن الحسين[٧]، وتجمع الناس يومئذ فيها من كل مكان لمشاهدة ذلك، ولهجوا بذكرهما زمنا، وقالوا فيهما الشعر، فاستحدثت تلك الثياب والمناديل وسميت بجر العمود لذلك[٨].

وأيضا فقد صار النساء حوالي سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م يلبسن على رؤوسهن عمائم أولها عند جبين المرأة وآخرها عند ظهرها طولها ذراع تقريبا، وارتفاعها ربع الذراع تدعى الشاش، وبالغ النساء فيها وقد تحدث عنها العلماء ونهَوا عنها بشدة[٩]، حيث إن النساء في دولة السلطان الأشرف خليل بن قلاوون قبل هذا التاريخ بكثير وتقريبا في سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م صارت

---

[1] عبد الرزاق، المرأة في العصر المملوكي، ص١٤٣.

[2] دُوزِي، تكملة المعاجم العربية، ج٨، ص٣٩٠-٣٩١.

[3] دُوزي، تكملة المعاجم العربية، ج٩، ص١٤٨؛ وقد كانت الخيول تزين وجوهها بالكنابيش كذلك، المقريزي، الخطط، ج٣، ص٣٥١.

[4] وهي طاقية من نسيج الكتان أو القطن توضع تحت العمامة أو القلنسوة أو الطربوش، وتطلق أيضا على ما يوضع على ظهر الفرس تحت السرج، دُوزي، تكملة المعاجم العربية، ج٧، ص١٩٢؛ المعجم الوسيط، ج٢، ص٥٩٦.

[5] المقريزي، السلوك، ج٢، ص٢٧٦.

[6] هو أحد قصور الفاطميين، أحمد عبد الرزاق، المرأة في مصر المملوكية، ١٨٤.

[7] تقدمت ترجمته في الفصل الأول وهو ابن بركة خاتون أم السلطان الأشرف.

[8] المقريزي، الخطط، ج٢، ص٢٨٣-٢٨٤.

[9] ابن الحاج، المدخل، ج١، ص٢٤٢؛ المقريزي، السلوك، ج٥، ص١٧٧.

النساء تلبس العمائم، وكان للسلطان الأشرف نائب على الشام يدعى علم الدين الشجاعي[١] اتخذ سياسة للقضاء على المنكرات -وكانت الدولة في حرب فاصلة مع الفرنج- فأمر الشّجاعيّ أن ينادى فِي الشام بإبطال العمائم للنساء، وأن لا تزيد المرأة على المقنعة، فالتزمت النساء وتركت العمائم[٢].

وقد تقدم كيف كان النساء يلبسن القباقيب في أرجلهن عند الحديث عن شجر الدر وقتلها لزوجها المعز أيبك بالقبقاب، وكيف قتلها أهله أيضا بالقباقيب، فالقباقيب كانت أحذية نساء مصر الملكات والجواري على حد سواء؛ ولبست النساء في أرجلهن الصنادل والبوابيج الغالية وكانت تسمى حينئذ السرموزة وكان ثمن الواحدة منها (٥٠٠) درهم[٣].

ومن ألبسة نساء الخواص من الملكات والأميرات وزوجات الوزراء ثياب الأطلس وهي الثياب الرقيقة (الساتان)، أو هو نسيج من الحرير[٤] الملوّن، وكان النساء يلبس ثيابا تسمى بالكامليّات الحرير[٥] وهي نوع من الملابس الفاخرة الفضفاضة الواسعة[٦].

وفي آخر عهد المماليك البحرية وبداية عصر المماليك البرجية رجعت النساء إلى لبس القمصان ذات الأكمام الواسعة للغاية، وصارت تعرف باسم القمصان الكمشبغاوية وهي تشبه أثواب نساء البدو وأكمامها واسعة[٧]، ما اضطر السلطان الظاهر برقوق (مؤسس دولة المماليك الجراكسة) إلى إصدار قانون بمنع ذلك، قال ابن تغري بردي:" ثم نادى ألا تلبس امرأة قميصا واسع الأكمام ولا يزيد تفصيل القميص على أكثر من أربعة عشر ذراعا، وكان النساء بالغن في سعة القمصان حتى كان يفصّل القميص الواحد من اثنين وسبعين ذراعا من القماش"[٨].

هذه معظم أنواع لباس نساء مصر في العصر المملوكي، فلبسن الأثواب الطويلة الفضفاضة ذات الأكمال العريضة الفضفاضة، وقد كن مختمرات[٩] ومنتقبات، ولكنهن غفلن أو

---

(1) تقدمت ترجمته في الفصل الأول.

(2) تاريخ الإسلام، ج٥١، ص٥٥.

(3) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٤٢٧.

(4) دُوزي، تكملة المعاجم العربية، ج٧، ص٦٥؛ المعجم الوسيط، ج٢، ص٥٦١.

(5) المقريزي، السلوك، ج٤، ص٥.

(6) دُوزي، تكملة المعاجم العربية، ج٩، ص١٤٢؛ د. أحمد عبد الرزاق، المرأة في مصر المملوكية، ١٨١.

(7) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص٣٠.

(8) المصدر السابق نفسه، ج١٢، ص٣٠.

(9) شاع خطأ أن الخمار هو غطاء الوجه، والصواب أن الخمار غطاء الرأس، قال تعالى: (وليضربن بخمرهن على جيوبهن)، القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري، (ت ٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م، تحقيق أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، ج١٢، ص٢٣٠؛ مرتضى الزبيدي، تاج العروس، ج١١، ص٢١٤.

تهاونّ في أمر مهم من أمور الشريعة وهو النهي عن التبرج وهو إبداء الزينة للأجانب ولبس ما يلفت نظرهم إلى المرأة، حيث إن النساء في ذلك العصر كن يلبسن ثيابا ساترة وواسعة إلا أنها مزركشة ومبهرجة تلفت النظر إليها، فوقف العلماء وأنكروا عليهن ذلك، بل وحرضوا السلطان على منعهن وبالفعل منع السلطان ذلك أكثر من مرة[١].

فكلام ابن الحاج ليس فيه تصريح أن النساء كن يخرجن من بيتهن بهذه الثياب الضيقة القصيرة فحسب، لأنه صرح بأنهن كن يلبسن السراويل إذا خرجن، ما يؤكد أن النساء في مصر في عهد المماليك البحرية لم يكن يخرجن كاشفات لعوراتهن، هذا بشكل عام، ولا يمكن لأحد القول بأنه لم يكن ثمة نساء يخرجن مكشوفات، ولكن عندما تقرأ عن لباس النساء في العصر المملوكي فإنك تجد المبالغة في توسيع الثياب طولا وعرضا.

لقد تحدث المؤرخون عما أحدثت نساء مصر من الألبسة من تطويل الثياب حتى تجر على الأرض وتطويل الأكمام وتوسيعها، فقد أحدثت النساء في مصر توسيع الأكمام كثيراً، وقد ظهرت هذه العادة قال المقريزي:" وتشبه نساء القاهرة بهن في ذلك حتى لم يبق امرأة إلا وقميصها كذلك"[٢]، حتى تجاوزت النساء حدود الاعتدال، وبلغت سعة الكُم ثلاثة أذرع (أكثر من متر ونصف)، ويسمينه البهطلة، ثمن الثوب ألف درهم فما فوق ومن سعة الأكمام صارت المرأة إذا رفعت المرأة يدها ظهر لحمها من تحت كمها!![٣]، فانقلب هذا الأمر من حدود الحشمة إلى حدود التكشف، فأمر الوزير منجك[٤] (ت٧٧٦هـ/١٣٧٥م) -وكان نائبا للسلطنة سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م - فأمر بقطع أكمام النساء، وأمر الوالي بتتبع ذلك، ونودي بمنع النساء من عمل ذلك، ووضع على سور القاهرة صور نساء عليهنّ تلك القمصان بهيئة نساء قد قُتلن عقوبة على ذلك، وقبض على جماعة منهنّ، وكان يغرّم على القميص ألف درهم وأكثر، فكفت النساء عن لبسها، ونُهي التجار من بيع أزُر الحرير وهُددوا بمصادرة أموالهم جميعها، حتى أنه مرة نودي على إزار حرير ثمنه سبعمائة وعشرون درهما فبلغ ثمانين درهما ولم يجرؤ أحد أن يشتريه، وقد شددت الدولة بالديار المصرية في ذلك كثيراً[٥].

---

(1) عبد الرزاق، المرأة في مصر المملوكية، ص١٨٠.

(2) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٤٢٧.

(3) ابن الحاج، المدخل، ج١، ص٢٤٣.

(4) الوزير منجك: هو منجك بن عبد الله، سيف الدين اليوسفي الناصري: أمير داهية جبار. يعرف بمنجك الكبير، كان في خدمة الناصر محمد بن قلاوون وتنقل في مناصب دولة المماليك البحرية من امير إلى وزير إلى وال حتى توفي سنة (٧٧٦هـ/١٣٧٥م)، العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٤، ص٣٦٠-٣٦١.

(5) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص٥٢١؛ المقريزي، الخطط، ج٤، ص١٣٢.

ثانياً: أدوات الزينة:

لقد تبين كيف تفننت النساء في لباسهن، ولا شك -من الناحية المنطقية- أن التفنن في اللباس سيلازمه تفنن في الزينة، وهذا ما كان بالفعل، فقد عرفت نساء مصر ضروبا من الزينة كثيرة، وفي البداية لا بد من الحديث عن الحمامات العامة التي تشابه محال التجميل أو الصالونات في العصر الحديث، تذهب المرأة فتستحم وتمتشط وتلبس الثياب الفاخرة وأغلى الحلي، قال ابن الحاج:" ألا ترى أن الواحدة منهن إذا أرادت الحمام استصحبت معها أفخر ثيابها، وأنفس حليها فتلبسه حين فراغها من الغسل في الحمام حتى يراها غيرها"[(١)].

ولقد امتازت مصر عن غيرها من الأقاليم الإسلامية بإبداع حماماتها، وكان ذلك إبان العصر الفاطمي (٢٩٦هـ-٥٦٧هـ/٩٠٩م-١١٧١م)[(٢)]، حيث يذكر المقريزي أن أول حمام شيد بالقاهرة كان في زمن الخليفة الفاطمي العزيز بالله فترة خلافته، وبقيت الحمامات في ازدياد وتطور حتى جاء عصر المماليك، وقد بلغ عدد الحمامات في سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦ ثمانون حماما[(٣)].

وكان الحمام كما سبق بمثابة صالون تجميل، وكانت النساء تأتيه للاستحمام والاستنظاف والتزيّن، فكانت تستقبل النساء خادمة الحمام وتدعى البلانة[(٤)]، حيث كانت تدلك أجسام الزبونات بقشور الرمان لإخراج ما يلتصق بالجلد من الأوساخ، ثم تصب عليهن الماء الساخن لإزالة الأوساخ، ومن ثم تقوم بتجفيف جسدها بالمناشف والفوط، وتقوم بإزالة الشعر عن الجسم إذا لزم، مستخدمة مواد متعددة كالنُّورَة أو السكر والليمون، ثم تعطر المرأة رأسها بالمسك وتزين حواجبها وعيونها بالكحل، ويدلك كعوبها بالبخور المخلوط بالعنبر والمسك، وتخضب يديها بالحناء[(٥)].

---

(1) ابن الحاج، المدخل، ج٢، ص١٧٢-١٧٣.

(2) الدولة الفاطمية قامت سنة ٢٩٦هـ/٩٠٩م، في شمال إفريقيا على يد أبي عبد الله الشيعي، ثم أعلن عبيد الله الملقب بالمهدي أول خليفة فاطمي ودخل مصر واستولى عليها سنة ٣٠١هـ/٩١٤م واستمرت إلى أن قضى عليها السلطان صلاح الدين سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م، المقريزي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر، تحقيق: جمال الدين الشيال، ج١، ص٥٥-٦٨.

(3) المقريزي، الخطط، ج٣، ص١٤٦.

(4) البَلان: أصلها يوناني وتعني حمام حار، وتؤنث بلانة وتطلق على ماشطة الملكة، واشتهر إطلاقها على خادمات الحمامات، ابن الحاج، المدخل، ج٢، ص١٧٢؛ دُوزي، تكملة المعاجم العربية، ج١، ص٤٣٩؛ المعجم الوسيط، ج١، ص٧٠.

(5) أحمد عبد الرزاق، المرأة في مصر المملوكية، ١٤٧-١٥١.

وقد كان في مصر سوق للأمشاط يدعى سوق الأمشاطيين، وكان عبارة عن مجموعة من الحوانيت التي تبيع أنواع المشاط المختلفة في النوع والشكل والاستعمال[١].

ومن أهم أدوات الزينة والتجميل المرايا، وكانت نساء الأمراء في عهد المماليك تستعمل مرايا محاطة بالذهب والفضة أو البرونز، تكون مزخرفة بزخارف نباتية، أو بآيات قرآنية[٢].

ومثل المرايا في الأهمية المكاحل، التي كانت تصنع من الزجاج أو الخشب أو النحاس أو الفضة أو العاج أو البلور، ويتحدث أحمد عبد الرزاق عن المكاحل التي عثر عليها ووضعت في متحف الفن الإسلامي: "وهذه المكاحل من التنوع والإبداع بحيث تشمل معظم الأشكال التي تخرجها المصانع في العصر الحديث"[٣].

ومما اخترعته النساء من الزينة في عصر المماليك –وتحديدا في عهد السلطان الناصر بن قلاوون– المقانع الغالية وهي ما تغطي بها المرأة رأسها ومحاسنها كما تقدم، والطرحات الثمينة[٤] والفرجيات وهي أثواب فضفاضة تعمل عادة من الجوخ، ولها كمّان واسعان طويلان يتجاوزان أطراف الأصابع قليلاً[٥]، وخلاخيل الذهب، والأطواق المرصعة بالجواهر وهي حلي تجعل في العنق[٦]، قال المقريزي عن عهد السلطان الناصر بن قلاوون: "واستجد النساء في أيامه المقنعة والطرحة بنحو عشرة ألاف دينار وبما دون ذلك إلى خمسة ألاف درهم والفرجيات بمثل ذلك. واستجد أيضا في أيامه للنساء الخلاخيل الذهب والأطواق المرصعة بالجواهر الثمينة والقباقيب الذهب المرصعة بالجواهر والأوطية[٧] المرصعة"[٨].

ومن الأمور التي أحدثتها نساء مصر في عصر المماليك، أن تلبس الخلاخيل فوق السراويل لكي يظهر الخلخال ويسمع صوته[٩].

وقد تحدث المقريزي عن قافلة للأمير منجك التي قدمت إلى مصر من الشام سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٢م محملة بالأقمشة والحرير والأنعام، وكان ضمن الملابس قباقيب من ذهب،

---

(1) المقريزي، الخطط، ج٣، ص١٧٧.

(2) عبد الرزاق، المرأة في مصر المملوكية، ١٦٢-١٦٣.

(3) المصدر نفسه، ١٦٢-١٦٣.

(4) الطرحة هو غطاء تلبسه المرأة يغطّي رأسها وكتفيها كالمنديل، دُوزي، تكملة المعاجم العربية، ج١٠، ص١٩١.

(5) المصدر نفسه، ج٨، ص٣٤.

(6) مرتضى الزبيدي، تاج العروس، ج٢٦، ص١٠٤.

(7) أظنها الأحذية، من وطأ إذا داس بقدمه، الزبيدي، تاج العروس، ج١١، ص٨٠.

(8) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص١٧٥-١٧٦.

(9) ابن الحاج، المدخل، ج٢، ص١٦٨.

بعضها مرصع بالجواهر، قيمتها مائة وخمسون ألف درهم، عنها نحو ثمانية آلاف مثقـال مـن الذهب[^١]، أي ما يعادل (٣٤) كيلو ذهب تقريبا[^٢].

وكان النساء يضعن على رؤوسهن الطراطير، وهي القلنسوات طويلة الرأس[^٣]، وكانت النساء تتزين بما كان يسمى الجلد البرغالي أي البلغاري، وهو جلد الفرس المبطن بجلد الذئب[^٤] وكان يرصع للملكات والأميرات بالجوهر واللآلئ[^٥].

واشتهر لدى النساء في مصر قلادة من عنبر، والعنبر هو نوع من الطيب يستخرج من حوت العنبر[^٦]، تسمى هذه القلادة العنبرية[^٧]، قال المقريزي:" وكان للعنبر إذ ذاك بديار مـصر نفاق، وللناس فيه رغبة زائدة، لا يكاد يوجد بأرض مصر امرأة وإن سفلت إلّا ولها قلادة مـن عنبر، وكان يتّخذ منه المخادّ والكلل[^٨] والستور وغيرها، وتجار العنبر يعدّون من بياض الناس، ولهم أموال جزيلة، وفيه رؤساء وأجلاء"[^٩].

ومن الزينة التي اتخذتها نساء مصر عقد شفتشي وهو عقد ذو زخارف مخرمة، شكلها بيضاوي وبأعلى كل منها لؤلؤة صغيرة الحجم، وأيضا أقبلت نساء مصر في عصر المماليـك على الأساور الذهبية المجدولة، والتي كان طرفاها ينتهيان برؤوس حيوانات كالأسد أو التنـين، كان يكتب على بعضها أمثال عربية شائعة مثل: "عز من قنع وذل من طمع"؛ وكانـت النـساء تلبس الأساور التي تسمى الغوايش وكان بعضها يصنع من الزجاج الملون[^١٠].

٣- الزواج والمهر والطلاق:

إن الزواج هو اللبنة الأولى في بناء الأسرة، والأسرة هي أساس بناء المجتمع، وهو سنة الله في بني آدم وفطرة الله التي فطر الناس عليها، فقال سبحانه: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ

[^١]: المقريزي، السلوك، ج٢، ص٢٧٦.
[^٢]: ومثقال الذهب يعادل الدينار الشرعي وهو يساوي بالغرامات (٤,٢٤) غراما، قلعجي، محمد رواس؛ وقنيبي، محمود صادق، معجم لغة الفقهاء، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، ٤٠٤.
[^٣]: الزبيدي، تاج العروس، ج١٢، ص٤٢٥.
[^٤]: ابن بطوطة، الرحلة، ج٢، ص٢٥٩.
[^٥]: المقريزي، السلوك، ج٤، ص٥.
[^٦]: مرتضى الزبيدي، تاج العروس، ج١٣، ص١٤٧-١٤٨.
[^٧]: المقريزي، الخطط، ج٢، ص٣٤٧.
[^٨]: الكِلل: مفردها كِلة وهي غشاء من ثوب رقيق يتوقى به من البعـوض، الزبيـدي، تـاج العـروس، ج٣٠، ص٣٤٧.
[^٩]: المقريزي، الخطط، ج٣، ص١٨٦.
[^١٠]: عبد الرزاق، المرأة في مصر المملوكية، ١٦٨-١٦٩.

ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)[١]، فهو يحافظ على النوع الإنساني في هذا الوجود، الذي يؤدي وظيفة إعمار هذه الأرض، في صورة تحفظ الأنساب وتصون الأعراض[٢].

لذلك عني الإسلام بعقد الزواج عناية خاصة، ووضع له من الأحكام ما يكفل تحقيق الغرض المنشود منه، وهو تحقيق السكينة والطمأنينة، والمحافظة على النوع الإنساني وعمارة الأرض، ومن هذه الحكام الخِطبة والولاية والرضى والشهود والمهر، ورتب عليه أحكاما كثيرة كالنسب والميراث والأبوة والأمومة والبنوة والمحارم والأجانب[٣]، ومع كل ما حف عقد الزواج من الأحكام الشرعية إلا أن الناس يحملهم تقليد الآخر إلى ترك تراثنا الفقهي الإسلامي العريق، وتقليد الآخر –بالطبع إذا كان الآخر هو الغالب والمتمكن–، قال ابن الحاج:" وأما في أمر النكاح فلا تسأل عما أحدثوا فيه من المخالفات... وهو كثير متعدد قل أن ينحصر أو يرجع إلى قانون معلوم لاختلافه بالنسبة إلى الأقاليم والبلاد والعوائد"[٤].

لقد كان الراغبون بالزواج يقصدون امرأة تدعى الخاطبة، حيث قد قيل إنها تعرف كل حرة وعاهرة وكل مليحة بمصر والقاهرة، وعادة إذا رضي الرجل باقتراح الخاطبة عليه فإنه يرسل الخاطبة مرة أخرى بهدية إلى عائلة الفتاة مع طلب يد البنت التي يريد[٥].

أما بالنسبة للمماليك فقد كان زواج غالبيتهم من جواريهم المملوكيات، حيث كان لهم كثير من الجواري الزنجيات أو المغوليات وفي الغالب التركيات، فكانت أكثرهن جمالا وتوددا أو أكثرهن وقوفا في المحن هي التي يختارها زوجة من بين جواريه، فالملك الصالح أيوب تزوج جاريته شجر الدر وقد كانت بارعة الجمال، وكانت وفية له فقد أقامت حين يوم حبس في الكرك وقاست معه خطوبا قاسية[٦]؛ وكذلك السلطان المنصور قلاوون تزوج جارية مغولية هي أشلون بنت سكتاي وقد تقدم الحديث عن ذلك في الفصل الأول، وكذلك طغَاي أم آنُوك، التي

---

(1) الروم، ج٢٠، ص٢١.

(2) عبد الرزاق، المرأة في مصر المملوكية، ص٦٥.

(3) النبهاني، محمد بن إبراهيم، النظام الاجتماعي في الإسلام، دار الأمة، بيروت، ط٤، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م، ١١١-١١٥.

(4) ابن الحاج، المدخل، ج٣، ص٢٨٨.

(5) عبد الرزاق، المرأة في مصر المملوكية، ٦٦-٦٧.

(6) ابن تغري بردي، مورد اللطافة، ج٢، ص٢١.

تزوجها الناصر، فهي في الأصل جارية تركية فائقة الجمال[١]، وصل خبر جمالها إلى الملك الناصر فأرسل إلى تنكز[٢] نائبه على الشام فاشتراها بتسعين ألف درهم وجهزها للسلطان الناصر وأرسلها إليه كما تبين في الفصل الأول، وبالمناسبة فإن السلطان الناصر كان متزوجا من أخت النائب تنكز وأنجبت منه ولده صالح وهو ثامن سلطان من أبناء الملك الناصر[٣].

وهذه اتفاق العوادة جارية في بيت الناصر، تزوجها ثلاثة سلاطين من أولاد الملك الناصر، وشغلوا بها عن الملك والسلطنة مع أنها لم تكن جميلة، قيل لأنها فاقت من عاصرها في الضرب على العود، وقيل لجمال صوتها، ولعل السبب الحقيقي الذي حبب بها ثلاثة ملوك كونها ودودا تكرم زوجها وترضيه في كل ما يطلبه، وقد لمح الصفدي -رحمه الله- إلى هذا المعنى في ترجمة الوزير موفق الدين[٤] فأبدع:" ولعله لمح منها ما هاله فحصل له الهلع، وأراد الله أن يختار له من السعود سعد بلع[٥]، وليس ذلك بدعاً فلولا الأغراض الفاسدة ما نفقت السلع، وما الوزير موفق الدين فرداً في هذه المسألة، ولا هو بأول من نصر حجة مبطلة"[٦].

وقد أحب السلطان الناصر محمد بن قلاوون أن يتزوج من ذات نسب، فأرسل أحد أمرائه إلى المغول في سنة ٧١٦هـ/١٣١٦م إلى ملك التتار يطلب بنتا من ذرية جنكيزخان، فجمع الملك أمراءه وهم سبعون أميرا وكلمهم الرسول في ذلك، فنفروا منه ثم اجتمعوا ثانيا بعدما وصلت إليهم هداياهم وأجابوا، ثم قالوا إلا أن هذا لا يكون إلا بعد أربع سنين، سنة سلام، وسنة خطبة، وسنة مهاداة، وسنة زواج، وطلبوا مهرا غاليا جدا، وبعد فترة وأخذ ورد، وافق المغول على طلب الملك الناصر وعين الملك له بنتا من بيت جنكزخان، هي طلنباي ويقال طولباي أو طولوبية[٧] ابنة طفاجي ابن هندر بن بكر بن دوشي خان ابن جنكزخان، وجهزت

---

[1] المقريزي، السلوك، ج٣، ص٤٨.

[2] تقدمت ترجمته في الفصل الأول.

[3] صالح: الملقب صالح الثاني هو صالح بن الناصر محمد بن قلاوون، أمه بنت الأمير تنكز نائب الشام، تولى السلطنة بعد أخيه الحسن بن الناصر سنة ٧٥٢هـ، واضطربت الدولة في وقته ولم تطل سلطنته حتى عزل وحبس سنة (٧٥٥هـ)، وبقي في الحبس حتى مات سنة (٧٦١هـ/ ١٣٦٠م)، المقريزي، السلوك، ج٤، ص١٣٩-٢٤٨.

[4] تقدمت ترجمته في الفصل الأول عند الحديث عن اتفاق المغنية.

[5] سعد بلع: تقدم في الفصل الأول أن السعود جمع سعد وهي الكواكب التي يقال لكل واحد منها: سعد كذا، ومنها سعد بلع، وهو نجمان مستويان في المجرى، أو متقاربان معترضان، (أحدهما خفي، والآخر مضيء)، لذلك اختار الصفدي تشبيه اقتران الوزير موفق الدين باتفاق، مرتضى، تاج العروس، ج٢٠، ص٣٥٦.

[6] الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٦٧٩.

[7] تقدم اسمها وترجمتها في بداية الفصل.

الخاتون طلنباي ومعها جماعة من الرسل، فوصلوا إلى الإسكندرية سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠، فلما طلعت الخاتون من المراكب حملت في خيمة على شكل قبة من الذهب على العجل، وجرّها المماليك إلى دار السلطنة بالإسكندرية، وبعث السلطان إلى خدمتها عدّة من الحجاب، وثماني عشرة من الحرم، حتى وصلت إلى القلعة، فأرسل الأمراء والقضاة فمشوا في خدمة العروس إلى القلعة وهي في عز، ثم عقد عليها على ثلاثين ألف دينار، المعجل منها عشرون ألفا، وأهدى خدمها يومئذ (٥٠٠) هدية[(١)]، ولكن هذا الزواج لم يدم طويلا وسرعان ما هجر الملك الناصر زوجته التترية ليقترن بغيرها من بنات الترك[(٢)].

وبالإجمال هذا كان دأب مماليك الترك وهو مصاهرة بعضهم البعض حتى كان بين كثير منهم صلات نسب متينة، وبيان ذلك فيما يلي:

لقد زوج الملك الناصر إحدى عشرة ابنة من بناته إلى أمرائه المماليك، وجهز إحدى عشرة ابنة له بالجهاز العظيم فكان أقلهن جهازا بثمانين[(٣)] ألف دينار: منها قيمة بشخاناه وداير بيت وهي الستائر التي تحيط بالسرير وتسمى الناموسية كما تقدم، وما يتعلق به بمائة ألف دينار وبقية ذلك ما بين جواهر ولألئ وأواني ونحو ذلك[(٤)].

ففي سنة ٧٢٢هـ/١٣٢٢م زوج السلطان الناصر بن قلاوون ابنته للأمير أبو بكر بن أرغون[(٥)] نائب السلطنة[(٦)]، وقد اعتنى السلطان بجهاز ابنته عناية عظيمه، وعمل لها بشخاناه وستارة وداير بيت زركش بمبلغ ثمانين ألف دينار وآلات ذهب وفضة بما ينيف على عشرة ألاف دينار، وعمر السلطان عمارة جديدة ونقل الجهاز إليها ثم نزل بنفسه حتى نصب الجهاز، وعمل لها العرس مدة ثلاثة أيام حضره نساء الأمراء[(٧)].

---

(1) المقريزي، الخطط، ج٣، ص١٢٢-١٢٣؛ المقريزي، السلوك، ج٣، ص٢٦.

(2) عبد الرزاق، المرأة في مصر المملوكية، ٦٨-٦٩.

(3) في متن السلوك يقول المقريزي بثمانمائة ألف دينار، ج٣، ص٣١٢؛ إلا أنه في موضع آخر من الكتاب نفسه وفي نفس الجزء قال:" وفيه كان عرس أمير علي بن أرغون النائب على ابنة السلطان في يوم الإثنين ثامن عشر شعبان، وقد اعتنى السلطان بجهازها عناية عظيمه وعمل لها بشخاناه وستارة وداير بيت زركش بمبلغ ثمانين ألف دينار وآلات ذهب وفضة بما ينيف على عشرة ألاف دينار، فإذا كان جهاز هذه البنت – وقد اعتنى السلطان بجهازها عناية عظيمة– ثمانين ألف دينار وآلات معدنية تقدر بعشرة آلاف دينار، فكيف يكون أقل بناته جهازا بمائة ألف دينار!!؟

(4) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٣١٢.

(5) هو علي بن أرغون المعروف بالنائب، لم أعثر على سنة وفاته، المقريزي، السلوك، ج١٣، ص٦٥.

(6) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص٢١٨.

(7) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٦٥-٦٦.

وفي سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٧م تزوج الأمير قوصون[١] من ابنة السلطان الناصر بن قلاوون، وقد جهز جهازها أبوها الناصر وكان شيئا عظيما، منه بشخاناه ودراير بيت زركش زنة البشخاناه بمفردها مائة ألف مثقال ذهبا، وعمل الفرح مدة سبعة أيام ذبح فيه خمسة آلاف رأس من الغنم الضأن ومائة رأس من البقر وخمسون فرسا، ومن الدجاج والأوز ما لا يحصى كثرة، وبلغ وزن الشمع الذي أحضره الأمراء (٣١١) قنطارا، وبلغت هدايا العرس الأمراء لقوصون خمسين ألف دينار. وعمل الأمير سيف الدين قجليس[٢] في القلعة ألعابا نارية على شكل برج من بارود ونفط كلف ثمانين ألف درهم، وجمعت مغاني القاهرة من النقوط مبلغ عشرة آلاف دينار مصرية[٣].

وكذلك الأمير سيف الدين قجليس الذي كان مقربا من السلطان الناصر قد تزوج ابنته التي كانت اجمل نساء القاهرة كما قيل، واحبها اللأمير حبا مفرطا وأنفق عليها نفقات بالغة، حتى إنها لم تتزوج معد موته[٤].

وحتى بعد وفاة الملك الناصر بقي الحال كذلك ففي سنة ٧٥٢هـ/١٣٥١م في عهد السلطان الصالح بن الملك الناصر كان عرس خوند زهراء ابنة السلطان الملك الناصر محمد على الأمير طاز[٥] الذي كان متفردا في تصريف في شؤون الدولة، ثم كان بعد ذلك عرس الأمير تنكز بغا[٦] وأعرس جماعة من الأمراء وعمل السلطان الصالح لكل منهم ما يليق به، فأقام الأفراح طول الشهر، وأنعم السلطان على طاز وعلى تنكز بغا بثلاثمائة ألف درهم[٧].

---

[1] قوصون: الأمير الكبير النائب سيف الدين الساقي الناصري، كان أميراً وهو في عداد الملوك الكبار، مات سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م، الصفدي، أعيان العصر، ج٤، ص١٣٦-١٣٧.

[2] قجليس: كان من خواص الناصر يندبه في المهمات، وكان الفضلاء يلازمونه وكان جميل المودة حسن الصحبة والعشرة وكان له شغف بالكتب يجمع نفائسها، وكان قد نال من الناصر منزلة عظيمة فكثرت مهابته وعظمت حرمته حتى كان معدا للأمور العظيمة يقذف به فيها ويعتمد عليه فيما يرومه منها توفي صفر سنة ٧٣١هـ/ ١٣٣٠م، العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٣، ص٢٤٣-٢٤٤.

[3] المقريزي، السلوك، ج٣، ص١٠١-١٠٢.

[4] العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٣، ص٢٤٤.

[5] طاز بن قطغاج الأمير الشهير كان بداية تقدمه في دولة الصالح إسمعيل بن الناصر، وكان بطلاً شجاعاً محباً للعلماء معظماً لهم كثير الخير والرجوع إلى الحق رحمه الله وقد تقدم أن الصالح بن التنكزية كان أفرده بتدبير الملك، إلى أن مات سنة ٧٦٣هـ، العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٢، ص٢١٤.

[6] تنكز بغا المارداني كان أميرا عند الناصر حسن بن الناصر بن قلاوون وكان حظياً عنده، قدره في ولاية الناصر الثانية ومات في رمضان سنة ٧٥٩هـ، المصدر السابق، ج١، ص٥٢٠.

[7] المقريزي، السلوك، ج٣، ص٣١٢.

وفي سنة ٧٦٩هـ/١٣٦٨م زوّج السلطان الأشرف شعبان بن الحسين بن الملك الناصر أخته خوند سارة[١] للأمير منكلي بغا[٢] الشمسي[٣]، حيث كان الأشرف قد تزوج أخت الأمير منكلي[٤]، وفي سنة (٧٧٠هـ/١٣٦٩م) زوج السلطان الأشرف أخته الأخرى[٥] للأمير بشتاك[٦] رأس نوبة، فجمع السلطان الأشرف الأمراء والقضاة في القلعة وعقد لأخته على بشتاك بمهر قدره خمسة عشر ألف دينار وأربعمائة ألف درهم فضة وتقدر هذه الدراهم بعشرين ألف دينار، وكان الذي تولى عقد النكاح بينهما قاضي القضاة سراج الدين عمر الهندي الحنفي[٧]، حتى أن بعض الفقهاء أنكروا عليه عقد النكاح من أجل أن الزوج قد مسه الرق فألف في جواز ذلك كتابا[٨].

مما سبق يتبين أن المماليك لم يكونوا يتزوجون من أهل البلاد الأصليين سواء كانوا ملوكا أو أمراء فلم يكونوا يصاهرون إلا مماليك مثلهم في الغالب وإذا أردوا أن يغربوا النكاح ناسبوا المغول، كما فعل الناصر محمد بن قلاوون؛ وهناك قضية اجتماعية ظهرت في العصر المملوكي الأول وهي عدم اختلاط المماليك البحرية بأهل مصر بشكل عام، وانقضى عصر المماليك البحرية والحال كذلك، وفي عهد أول سلاطين المماليك البرجية السلطان الظاهر برقوق الجركسي رخص للمماليك في سكنى القاهرة، وفي الزواج من نساء البلد، فنزلوا من القلعة (البرج) واختلطوا بأهل البلد ونكحوا نساءهم وشيئا فشيئا نسوا عاداتهم السابقة[٩].

---

[1] المقريزي، السلوك، ج٣، ص٣١٢.

[2] هو الأمير الكبير سيف منكلى بغا بن عبد الله الشمسيّ أتابك العساكر بالديار المصرية، كان من أجلّ الأمراء وأعظمهم حرمة وهيبة ووقارا، وكان فيه ديانة، توفي سنة ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص١٢٤.

[3] المقريزي، السلوك، ج٣، ص٣١٢.

[4] وقد توفيت زوجة السلطان سنة ٧٧٧هـ، المقريزي، السلوك، ج٤، ص٣٩٥.

[5] المقريزي في هذا الموضع قال إنها خوند سارة أخت السلطان، مع أنه ذكر خوند سارة أخت السلطان التي زوجها للأمير منكلي بغا قبلها عندما تحدث عن سنة ٧٩٦هـ، فإما أن المقريزي خلط بين الأختين فظن الأخرى خوند سارة، أو أنهما أختان ولهما نفس الاسم وهذا الأمر كان سائغا في الأزمنة الخالية.

[6] بشتاك العمري أول ما تأمر في سنة ٧٦٩هـ، وصار رأس نوبة الكبير، وتزوج أخت الأشرف إلى أن مات في شعبان سنة ٧٧١هـ وقيل في شوال سنة ٧٧٢هـ، العسقلاني، الدرر الكامنة، ج١، ص٤٧٧.

[7] عمر بن إسحاق بن أحمد الغزنوي العلامة الحنفي القاضي سراج الدين الهندي كان عالما بالأصول والمنطق والتصوف والحكم، سكن القاهرة وهو متأهل للعلم فتميز بها، وصنف كثيراً من التصانيف، منها شرح المغنى فى أصول الفقه والبديع لابن الساعاتى والهداية ولم يكمله، وكان دمث الأخلاق طلق العبارة شهما مقداما فصيحا له حظوة عند الأمراء، ومات في سابع شهر رجب سنة ٧٧٣هـ/١٣٧١م، العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٣، ص١٥٤-١٥٥.

[8] المقريزي، السلوك، ج٤، ص٣٢٦.

[9] المصدر نفسه، ج٣، ص٣٧٣.

ولقد جرت العادة في الزواج أن يدفع الزوج جزءا من المهر مقدما قبل عقد الزواج، أما الباقي الذي اصطلح عليه بمؤخر الصداق فكان يسدد على أقساط مؤجلة[١]، فقد جاء في الخطط للمقريزي عن زواج الملك الناصر من طلنباي التترية "ثم عقد عليها يوم الاثنين سادس ربيع الآخر على ثلاثين ألف دينار، حالة المعجل منها عشرون ألفا"[٢]؛ وهذا الأمير آنوك بن السلطان الناصر تزوج بنت بكتمر الساقي[٣] فعقد العقد بالقصر على صداق مبلغه من الذهب اثنا عشر ألف دينار المقبوض منه عشرة آلاف دينار[٤]؛ وتزوج بكرة خان بن السلطان الظاهر بيبرس من غازية بنت السلطان المنصور قلاوون على صداق قدره خمسة آلاف دينار ذهبي المصري، منها ألف مقدمة، وكانوا يكتبون الصداق في كتاب وجاء فيه:" هذا ما أصدق مولانا السلطان الملك السعيد ناصر الدين بركة خان بن ... فبذل لها من العين[٥] المصري ... مبلغ خمسة آلاف دينار المعجل منها ألفا دينار "[٦].

وجرت العادة أن يكون عقد الزواج في المسجد ويأتوا بالمباخر المفضضة ويحرقون بها البخور، ثم بعد العقد ينصرفون بحفل كبير[٧].

وبعد ذلك ينقل الأب جهاز ابنته إلى بيت زوجها، وكانوا يسمونه شُوارا[٨]، وقد مر كيف كان السلاطين يصنعون بجهاز بناتهم بما لا يمكن وصفه وحصره من النعم، وكانوا يهتمون كثيراً بغرفة النوم، وكما تقدم كان يهتمون بالسرير فيفصلون له ناموسية (بشخانة) مزركشة ووسائد وستائر لبيت النوم بما قد يبلغ مائة ألف دينار ذهبي مصري كما جهز السلطان الناصر غرفة إحدى بناته، حيث تقدم أن أقل جهاز غرفة نوم إحدى بناته بلغ قيمته ثمانين ألف دينار[٩].

---

(1) عبد الرزاق، المرأة في مصر المملوكية، ص٧٣.

(2) المقريزي، الخطط، ج٣، ص١٢٢.

(3) بكتمُر الأمير سيف الدين الساقي الناصري، كان أولاً من مماليك المظفر بيبرس الجاشنكير، ثم صار أقرب الأمراء إلى السلطان الناصر بن قلاوون، وتوفي في سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م، الصفدي، أعيان العصر، ج١، ص٧٠٩-٧١٠.

(4) المقريزي، السلوك، ج٣، ص١٥٢.

(5) العين هي الذهب، فشبهوا الذهب بالجارحة في كونه أفضل الجواهر، كما أن العين أفضل الجوارح، الزبيدي، تاج العروس، ج٣٥، ص٤٤٦.

(6) العيني، بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد، (ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، تحقيق: محمد محمد أمين، مج٦، جزء٢ من عصر سلاطين المماليك، ١٤٨-١٤٩.

(7) ابن الحاج، المدخل، ج٢، ص٢٦٤.

(8) دوزي، تكملة المعاجم العربية، ج٦، ص٣٧٦.

(٩) المصدر نفسه، ج٦، ص٣٧٤.

وقد لخص المقريزي أعراس المماليك وما يتعلق بها من جهاز وفرح ونقوط وهدايا بما يلي: "وفيه كان عرس أمير علي بن أرغون النائب على ابنة السلطان في يوم الاثنين ثامن عشر شعبان، وقد اعتنى السلطان بجهازها عناية عظيمه وعمل لها بشخاناه وستارة ودابر بيت زركش بمبلغ ثمانين ألف دينار وآلات ذهب وفضة بما ينيف على عشرة ألاف دينار... ونقل الجهاز إليها ثم نزل بنفسه حتى نصب الجهاز، وعمل المهم[1] مدة ثلاثة أيام حضره نساء الأمراء بتقادمهم: وهي ما بين أربعمائة دينار سوى تعابي القماش إلى مائتي دينار، وكان فيه ثماني جوق[2] من مغاني القاهرة وعشرون جوقة من جواري السلطان والأمراء، خص كل جوقة من جوق القاهرة خمسمائة دينار ومائة وخمسون تفصيلة حرير، ولم يحصوا ما حصل لجواري السلطان والأمراء لكثرته، فلما انقضى المهم بعث السلطان لكل من نساء الأمراء تعبية[3] قماش على قدرها وعم جميع الأمراء بالخِلع[4] وفضل من الشمع بعدما استعمل منه مدة العرس ألف قنطار مصري"[5].

ومع كل ذلك فقد استقل السلطان الناصر جهاز ابنته بعد نصبه، حيث جاء في الدرر الكامنة لابن حجر:" وكان الجهاز على ثمانمائة جمل وستة وثلاثين قطاراً من البغال، وذكر المهذب كاتب بكتمر[6] أن الذهب الذي وجد في الزركش والمصارع ثمانون قنطاراً بالمصري، ومع ذلك فلما نصب رآه السلطان فلم يعجبه، فقال رأيت شوار بنت سلار[7] أحسن من هذا وأكثر!!"[8]، وقد كان العرس أحيانا ثلاثة أيام[9] وأحيانا أسبوعا كاملا، تذبح الذبائح وتغني المغاني ويتحلى الناس ويتنعمون في تلك الأيام[10].

---

(1) المهم يريدون به العرس أو الفرح، دوزي، تكملة المعاجم العربية، ج١١، ص٢١.

(2) الجوق جمع جوقة وهي الفرقة، الزبيدي، تاج العروس، ج٢٥، ص١٣٤.

(3) تعبية أصلها تعبئة هي الحمولة، دوزي، تكملة المعاجم العربية، ج٧، ص١٣٢.

(4) الخِلع: جمعة خلعة وهي ما يخلع على الإنسان من الثياب، ويطلق عادة على هداية السلطان من الثياب الفاخرة للوزراء والأمراء، الزبيدي، تاج العروس، ج٢٠، ص٥٢٣-٥٢٤.

(5) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٦٦.

(6) المهذب هو كاتب نصراني كان عند الأمير بكتمر ثم أسلم، ولم أقف على سنة وفاته، المقريزي، السلوك، ج٣، ص١٤٤.

(7) سلار: هو سلار البيري المنصوري كان من مماليك الصالح علي بن قلاوون فلما مات صار من خواص أبيه قلاوون ثم صار نائبا للناصر وقدمه على الكل، مات سنة (٧١٠هـ/ ١٣١٠م)، العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٢، ص١٧٩-١٨٢.

(8) العسقلاني، الدرر الكامنة، ج١، ص٤١٨.

(9) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٦٥-٦٦.

(10) المصدر السابق، ج٣، ص١٠١-١٠٢.

وكتب التاريخ مليئة بذكر تكاليف أعراس المماليك التي بلغت حدودا قد يظنها البعض من نسج الخيال، وبلاد الأحلام والآمال، وقد مر شيء منها غير يسير وفيه الكفاية، ولكن بعد كل ما ذكر من عادات في الأعراس والأفراح والأعياد فإنه لا بد من التأكيد على حقيقة مهمة وهي دور المرأة في كل ما مر من عادات المماليك في أعراسهم وأعيادهم ومناسباتهم، فإن السلطان الناصر بن قلاوون على كثرة الأفراح في عهده وكثرة زواجه وزواج أولاده وزواج بناته وما يتبع ذلك من أفراح ومأكولات وغناء ورقص وعزف، وطبخ وولائم وترتيبات، ومثل ذلك في الأعياد، فإن ذلك كله قد كان ترتيبه بيد المرأة لا بيد الرجل، فقد جاء في الخطط للمقريزي: " وكانت حدق ومسكة[1] من جواري السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، نشأتا في داره وصارتا قهرمانتين لبيت السلطان يقتدى برأيهما في عمل الأعراس السلطانية والمهمات الجليلة التي تعمل في الأعياد والمواسم، وترتيب شؤون الحريم السلطانيّ، وتربية أولاد السلطان، وطال عمرهما وصار لهما من الأموال الكثيرة، والسعادات العظيمة ما يجلّ وصفه، وصنعا برّا ومعروفا كبيرا، واشتهرتا وبعد صيتهما وانتشر ذكرهما"[2].

وأما بالنسبة لحوادث الطلاق وهو حل رباط الزوجية فلا شك أنه كما أنه يوجد زواج فلا بد من وجود الطلاق، وقد سجل المؤرخون بعض حوادث الطلاق، التي أحدثها المماليك من الأمراء والسلاطين ولكنها قليلة جدا بالنسبة للزواج والأفراح، ومن حوادث الطلاق التي ذكرها المؤرخون أنه في سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م طلق السلطان الناصر زوجته أردكين[3] بنت الأمير

---

[1] والغريب أن المقريزي في كتاب السلوك جعل مسكة وحدق امرأة واحدة فقال:" وجميع القهرمانات: مثل الست حدق المعروفة بالست مسكة"، السلوك، ج٣، ص٥٣؛ وقال في موضع آخر في السلوك:" وحكرت الدادة حدق – وهي المعروفة باسم ست مسكة القهرمانة"، السلوك، ج٣، ص٣١٧؛ وكذلك فإن ابن حجر العسقلاني قال في الدرر الكامنة: "حدق القهرمانة الناصرية كان الناصر جعل إليها أمور نسائه فتحكمت في داره تحكما عظيما حتى صارت لا يقال لها إلا الست حدق وحجت مرة فضرب المثل بما فعلته من الخيرات وعمرت جامعا ظاهر القاهرة وكان يقال لها ست مسكة فربما قيل للجامع جامع ست مسكة فيغلط بعضهم فيجعل في ست ألفا ولاما"، الدرر الكامنة، ج٢، ص٧.

[2] المقريزي، الخطط، ج٣، ص٢١٠.

[3] أردكين أردكين بنت نوكاي بن قطغان المغولية تزوج بها الأشرف خليل بن قلاوون، فلم تزل عنده إلى أن قتل فعملت له عزاء عظيما ثم تزوجها الناصر في سنة ٧٠٠هـ ثم طلقها الناصر في سنة ٧١٧هـ، وأنزلت إلى القاهرة ورتب لها ما يكفيها إلى أن ماتت في المحرم سنة ٧٢٤هـ، وكانت موصوفة بالخير والجود، العسقلاني، الدرر الكامنة، ج١، ص٣٤٧.

نوكاي[١] سيف الدين[٢]، وفي سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٨م طلق زوجته طلنباي التترية، وبعد انقضاء عدتها عقد عليها الأمير سيف الدين منكلي بغا[٣].

وفي قصة غريبة نوعا ما ذكرها المقريزي في السلوك قال فيها"... خطب السلطان الكامل شعبان[٤] ابنة الأمير بكتمر الساقي، فامتنعت أمها من إجابته واحتجت عليه بأن أختها تحته ولا يجمع بين أختين، وأنه –بتقدير أن يفارقها– فأنه شغف باتفاق حظية أخيه الصالح إسماعيل شغفا زائدا، ثم قالت أمها: ومع ذلك فقد تغير حال المخطوبة من شدة الحزن فإن أول من أعرس عليها آنوك بن السلطان الناصر محمد فمات عنها وهى بكر لم يمسها، فتزوجها بعده أخوه السلطان المنصور أبو بكر وقتل، ثم تزوجها بعد المنصور أبو[٥] بكر أخوه السلطان الملك الصالح إسماعيل، ومات عنها أيضا فحصل لها حزن شديد من كونه تغير عليها عدة أزوج[٦] في مدة يسيرة. فلم يلتفت السلطان الكامل شعبان إلى هذه الكلام وطلق أختها وأخرج جميع ما كان لها في ليلته ثم عقد عليها ودخل بها"[٧]، والشاهد في القصة أن السلطان الكامل طلق امرأة ليتزوج أختها لأنه لا يحل له الجمع بين الأختين[٨].

وحكى المقريزي قصة طلاق أخرى غريبة نوعا ما وهي "...تزوج الملك الصالح علي ابن السلطان[٩] بخوند منكبك ابنة الأمير سيف الدين نوكيه[١٠] وكانت تحت الأمير زين الدين كتبغا المنصوري[١١] فرآها الملك الصالح يوم حضرت مع نساء الأمراء مهم[١٢] أشلون يوم زفت

---

(1) نوكاي التتري، توفي سنة (٦٩٩هـ)، المقريزي، السلوك، ج٢، ص٣٣٣.

(2) الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٦٠٠؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٥٢٧.

(3) المقريزي، السلوك، ج١، ص٣٧٣.

(4) هو ابن الناصر وتقدم ذكره أكثر من مرة، وترجمت له في الفصل الأول.

(5) كذا في النسخة (أبو بكر) وهي خطأ، والصواب (أبي بكر) لأنه بدل من المنصور وهو مجرور فيتبعه في الجر.

(6) كذا في النسخة (أزوج) والصواب أزواج ولعل الألف سقطت من النسخة، لأن الزوج لا تجمع على أزوُج فيما قرأت.

(7) المقريزي، السلوك، ج٤، ص٩.

(8) قال تعالى في سورة النساء: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ... وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا)، النساء، ٢٣.

(9) الملك الصالح هو علي بن السلطان المنصور قلاوون، توفي سنة ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٥١، ص٣١٠-٣١١.

(10) هي أخت أردكين التي تزوجها الناصر بن قلاوون ثم طلقها والتي ذكرت آنفا، وأبوهما المير نوكاي وقال المقريزي في أكثر من موضع نوكيه، ولم أجد له ترجمة تشفي الصدر، المقريزي، السلوك، ج٢، ص١٦٣، ٢٣٣.

(11) تقدمت ترجمته في الفصل الأول عند الحديث عن أشلون زوج المنصور قلاوون.

(12) مهم أي عرس أو فرح كما تقدم.

إلى السلطان، ففتنه حسنها حتى كاد يهلك، فما زال السلطان بطرُنْطاي النائب[1] حتى ألزم كتبغا بطلاقها فطلقها!!"[2].

ويذكر ابن الحاج أن نساء مصر في عهد المماليك كن هن سبب الطلاق في الغالب، فيقول:" لا جَرَمَ[3] أنهن لما خالفن الشرع وارتكبن هذه المحرمات المتفق عليها لم يخلق الله بينهم توفيقا في الغالب، إذ التوفيق إنما ينتج عن الامتثال وذلك بعيد منهن في الغالب فتجد أكثرهن يشتكين ويبكين ويكابدن الهموم وكذلك أزواجهن، ويأكلن بالفرض بعد المشاجرة أو الوقوف إلى الحكام أو هما معا وكشف الستر عنهن بدخول الأجانب بينهما"[4].

وقد كثر في مصر في عهد المماليك الطلاق ثلاثا حتى سهل على الرجال، ولم يعودوا يخشون من عواقبه، فإنه معلوم في الشريعة الإسلامية أن الرجل إذا طلق امرأته ثلاث مرات تحرم عليه حتى تتزوج من رجل آخر ويدخل عليها، قال تعالى: (فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)[5]، ولكن اتخذ الناس عادة عند وقوع الطلاق ثلاثا، وهي أن يتفق الزوج أو الزوجة مع رجل غريب على أن يتزوج الأخير من المرأة ثم يطلقها لتحل لزوجها الأول، وهو ما يسمى نكاح المحلّل وهذا أمر حرام[6]، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَعَنَ اللَّهُ الْمُحَلِّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ)[7]، قال ابن الحاج:"حتى إن الغالب منهن يقع الطلاق عليها إلى منتهاه[8]، ثم يتعلق خاطر كل واحد منهما بصاحبه ويفعلون ما هو مشهور اليوم بينهم من الاستحلال المحرم البيِّن التحريم، الذي يستحي المرء أن يحكيه فكيف يفعله المسلمون ثم يردها

---

[1] طرنطاي هو الأمير الكبير حسام الدّين، أبُو سَعِيد المنصوريّ، السّيفيّ، لمّا وُلي المنصور قلاوون السّلطنة جعله نائبة، وردّ إِلَيْهِ أمر الممالك، فكان لَيْسَ فوق يده يد، وتوفي سنة ٦٨٩هـ، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٥١، ص٣٦٩-٣٧٠.

[2] المقريزي، السلوك، ج٢، ص١٦٣.

[3] لا جرم: لا جرم كلمة ترد بمعنى تحقيق الشيء، أصلها التبرئة بمعنى لا بد، وقد استعملت في معنى حقا، الزبيدي، تاج العروس، ج٣١، ص٣٩١.

[4] ابن الحاج، المدخل، ج٢، ص٦٠-٦١.

[5] البقرة، ٢٣٠.

[6] ابن رشد، محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الشهير بابن رشد الحفيد، (ت ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م)، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤ م، ج٣، ص٨١.

[7] رواه الترمذي والنسائي من حديث ابن مسعود، وصححه ابن القطان، وابن دقيق العيد على شرط البخاري، ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر، (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م)، التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، مؤسسة قرطبة، مصر، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، تحقيق أبو عاصم حسن بن عباس بن قطب، ج٣، ص٣٥٠.

[8] أي الطلاق ثلاثا.

إلى العصمة على ما يزعمون، ثم يرجعن بعد ذلك إلى ما اعتدنه من المـضاررة والمـضاربة وسوء العشرة"[١].

ولا شك أن الطلاق وحوادث الطلاق حـوادث لا يـصحبها أفـراح ولا جنـازات ولا اجتماعات كبيرة لكي تعرف ويدونها المؤرخون، ولكن لم تخل كتب التاريخ من حـوادث كمـا تبين إلا أنها حوادث قليلة جدا بالنسبة لحوادث الأعراس وما كان فيها مـن عوائـد، وذلـك أن الناس يجتمعون في الأفراح ويشاركون أهل العرس فرحهم، وكذلك حوادث الموت فإن النـاس يجتمعون ليعزوا بعضهم، وشأن النكاح والموت الإشهار، بخلاف شأن الطـلاق فـإن طبيعـة الطلاق تدعو إلى الاستتار والتكتم لا إلى الإشهار والإعلان، لذلك فمـن الطبيعـي أن لا تجـد حوادث الطلاق مدونة في كتب التاريخ بقدر عشر معشار حوادث النكاح والموت.

رابعاً: مظاهر من العادات والتقاليد الاجتماعية:

كثيرة هي العادات والتقاليد في عصر المماليك، وقد اسـتطاعت المباحـث الـسابقة أن تحتوي على كثير منها، وستقوم الباحثة بترتيب العوائد والتي للمرأة بها تعلق، وجمـع مـا لـم يذكر.

ومن عادتهم في بناء البيوت: وليس المقصود هو التحدث عن طريقة العمران بشكل عام، وإنما المراد هو التحدث عن أثر المرأة في مصر المملوكية في العمران، حيث إن المهندسين في ذلك العصر كانوا يراعون حجاب المرأة وسترتها أثناء تخطيطهم للبيوت، فحرصوا على عدم تمكين أحد خارج البيت من رؤية شيء بداخل البيت، حيث إنهم قد عملوا انكسارا في مـدخل الـدار لينحني الداخل من الباب الرئيس غربا نحو دهليز ومنه ينحرف إلى فناء الدار الـداخلي الـذي يتوسط الدار؛ وكذلك عملوا على جعل النوافذ بعيدة عن أعين المارة أو حتى لراكبي الإبل فـي الطرقات، حيث جعلوا النوافذ عالية للغاية، أو كانوا يسدون النوافذ بالمشربيات وهـي شـبابيك محاطة بحواجز خشبية بارز إلى الخارج، تمكن أهل الدار من رؤية من بخارجها ولا تمكن الذي بالخارج من رؤية من بالداخل[٢]، كما روعي في عصرهم تقسيم الدار إلـى قـسمين رئيـسين أحدهما طابق أرضي خاص بالرجال وهو الذي عرف في زمن العثمانيين باسم السلاملك، وقـد أعد للاستقبال وإقامة الحفلات، والآخر هو الطابق العلوي وهو خاص بالحريم، وقد عرف فـي

---

[1] ابن الحاج، المدخل، ج٢، ص٦١.

[2] دوزي، تكملة المعاجم العربية، ج٦، ص٢٨٣.

زمن العثمانيين باسم الحرملك، وجعلوا للنساء مداخل خاصة ثانوية مستقلة تماما عن مداخل الطابق الأرضي، تحقيقا للفصل بين الرجال والنساء[١].

ومن عاداتهم استقلال الرجال عن النساء في الطعام: إذ استحدث الناس في مصر عادة ذكرها ابن الحاج وعدها من البدع:" وهي أن يكون للرجل طعام خاص به وزُبدِيّة[٢] خاصة به وكوز[٣] خاص به"[٤]، أي أن الرجل مستقل في طعامه وأوانيه عن امرأته وأولاده، وهذا الأمر كان له غرضان:

غرض لبعض الرجال حيث كان يعده البعض مظهرا من مظاهر الاستعلاء وأفضلية في غير موضعها، ومع أن الشريعة تحض على الاجتماع إلى الطعام، واجتماع الرجال والنساء الأجانب مع بعضهم على موائد الطعام تبيحه الشريعة بينما تحرم الشريعة اجتماعهم في غالب حياتهم، حيث قال تعالى: (لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا)[٥].

وقال ابن الحاج في معرض ذمه لهذه الظاهرة:" ألا ترى حديث عائشة –رضي الله عنها– قالت: (كنت أشرب من الإناء فيأخذه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيشرب منه فيضع فاه في موضع في)[٦] انتهى، وهذا تشريع منه – عليه الصلاة والسلام – لتغتنم أمته بركة بعضهم لبعض وتكون منفعتهم عامة بعضهم لبعض؛ وانظر إلى قوله – عليه الصلاة والسلام – (سؤر المؤمن شفاء)[٧] فيحرم المسكين هذه البركة بسبب هذه البدعة التي أحدثت وانظر إلى

---

(1) عبد الرزاق، المرأة في مصر المملوكية، ص١٠٤.

(2) زبدية: وهي إناء صيني بلون الزبد، دوزي، تكملة المعاجم العربية، ج٥، ص٢٨١.

(3) كوز: وعاء يحفظ فيه اللبن، دوزي، تكملة المعاجم العربية، ج٩، ص١٦٣.

(4) ابن الحاج، المدخل، ج١، ص٢١٦.

(5) النور، ٦١.

(6) رواه أحمد وغيره، باختلاف يسير في اللفظ، وإسناده على شرط مسلم، ابن حنبل، أحمد بن محمد، (ت٢٤١هـ/ ٨٥٥م)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م، تحقيق وتخريج وتعليق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد، وآخرون، ج٤٠، ص٣٨٤.

(7) ليس بحديث في الحقيقة، العجلوني، إسماعيل بن محمد، (ت١١٦٢هـ/ ١٧٤٩م)، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، مكتبة العلم الحديث، تحقيق الشيخ يوسف بن محمود الحاج أحمد، ج١، ص٥٢٢.

قوله – عليه الصلاة والسلام – (المؤمن يأكل بشهوة عياله)[١] انتهى، فإذا كان له طعام خـاص به فهو يأكل بشهوة نفسه... وأقل ما في ذلك أن فاعله متصف بالكبر"[٢].

وأما الغرض الثاني لهذه الظاهرة فهو غرض لبعض النساء حيث قال ابن الحاج:" وهذه دسيسة من دسائس إبليس دسها على المسلمين بواسطة النساء؛ لأنهن يجدن السبيل إلى إطعـام الرجل ما يخترن من السحر وغيره ... وغيرتهن تحملهن على ذلك، فلو كان يـشاركهن فـي الأكل ما وجد إبليس لفتح هذا الباب من سبيل"[٣].

وكان للمصريين عناية فائقة في معابدهم بالموسيقى، ويظهر ذلك من تماثيلهم التي مثلت بها الضاربين والمغنين[٤]، وظل هذا الأمر فيهم عبر الأزمنة حتى جاء زمن المماليـك، وفـي زمن المماليك حظيت المغنيات عند الملوك، وقد عرفنا اتفاق المغنية كيف حظيت بغنائها عنـد ثلاثة سلاطين، وقد مر بالتفصيل الحديث عن الزواج والأفراح وما يحدث فيها، فإنه قـد مـر الحديث عن الفرق الغنائية في الأعراس، حيث كان في عرس بنت الناصر ثمـاني فـرق مـن مغنيات القاهرة، وكانت المغنيات تجمع أموالا كثيرة، ففي عرس ابنة السلطان كل فرقة حصلت على خمسمائة دينار ومائة وخمسين تفصيلة حرير[٥]؛ وكذلك كانت عادة إلقـاء النقـود علـى المغنيات التي نراها في أيامنا هذه منذ عهد المماليك، قال المقريزي:" والمغاني تضربن بدفوفهن وأنواع المال من الذهب والفضة وشقف الحرير يلقى على المغنيات ... ثم زفت العروس"[٦].

وعرف الرقص في مصر منذ قديم الزمان حيث اشتهر بنو إسرائيل في مصر بالرقص، حيث كان لهم نوعان من الرقص المقدس المنظم ورقص سريّ لـه اتـصال بالتعبـد، وكـان للعبرانيين نوع من الرقص الشريف ترقصه العذارى في الحفلات العامة احتفاءً بذكرى حوادث سعيدة، من مثل انتصار على عدو أو تكريم مجد أبطال الوطن[٧]، وفي عهد المماليـك عـرف رقص الرجال ناهيك عن النـساء!!، فهـذا الأميـر حـسام الـدين لاجـين المتـوفى سـنة ٦٣٢هـ/١٢٣٥م، الذي كان يحب الفقراء (المتصوفة) ويجمعهم ويطعمهم من حين إلـى آخـر روي عنه مرة صنع طعاما وجمع جماعة من الفقراء "ثم مد بعد المغرب سماطا نحو مائة زبدية

---

(1) رواه الديلمي وغيره بسند مقبول، العجلوني، كشف الخفاء، ج٢، ص٣٥٢.

(2) ابن الحاج، المدخل، ج١، ص٢١٦.

(3) المصدر السابق نفسه، ج١، ص٢١٦.

(4) كُرْد عَلي، خطط الشام، ج٤، ص٩١.

(5) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٦٦.

(6) المصدر نفسه، ج٣، ص١٥٥.

(7) كُرْد عَلي، خطط الشام، ج٤، ص١٢٦.

عادلية، في الزبدية خروف صحيح رضعي... قال: وبعد العشاء شرعوا في الرقص، فـرقص بين الفقراء سالكا من الأدب معهم ما لا مزيد عليه. فلما فرغت النوبة مـد صـحون الحلـواء والقطائف السكرية، فأكلوا بعضه، وأخذ عامة ذلك الفقراء في خرقهم، ثم رقص هـو وغلمانـه والمشايخ، فلما فرغوا مد فواكه في غاية الكثرة والحسن..."[1]، وذكر المؤرخون طاجار بالطاء المهملة وبعد الألف جيم وألف بعدها راء، الأمير سيف الدين الدوادار المارداني المتوفى سـنة (٧٤٢هـ/١٣٤١م)، قال فيه الصفدي:" كان شكله مليحا، ووجهه صبيحا...لا يؤثر على الرقص شيئا، ولا يتخذ غير ظله فيئا"[2].

وأما بالنسبة لرقص النساء فحدث ولا حرج، ويكفي ذكر هذه الحادثة وهي عرس آنوك ابن السلطان الناصر بن قلاوون فإنه يوم عرسه قامت نساء الأمـراء!!! يرقـصن بـين يـدي السلطان واحدة بعد أخرى[3].

ومن العادات التي شاعت في ذلك العصر إهداء الشمع في الأعراس: فقد اعتاد المماليـك فـي أعراسهم أن يأتي الأمراء إلى العرس يحملون قناطير من الشمع ضمن هداياهم إلى العـريس، فإنه عندما تزوج قوصون ابنة السلطان الناصر جاء الأمراء معهم الهدايا والشمع " وبلـغ وزن الشمع الذي أحضره الأمراء ثلاثمائة قنطار وأحد عشر قنطارا"[4]، وقد كانوا يزينـون الـشمع ويزخرفونه ثم يهدونه لأهل العريس، فعند عرس الأمير آنوك ابن الـسلطان الناصـر "جلـس السلطان على باب القصر وتقدم الأمراء على قدر مراتبهم واحد بعد واحد ومعهم الشموع، فـإذا قدم الواحد ما أحضره من الشمع قبل الأرض وتأخر، ومازال السلطان بمجلسه حتـى انقـضت تقادمهم[5] فكانت عدتها ثلاثة ألاف وثلاثين شمعة، زنتها ثلاثة ألاف وستون قنطارا، فيهـا مـا عني به ونقش نقشا بديعا تنوع في تحسينه، فكان أبهجها وأحسنها شمع الأمير علم الدين سنجر الجاولي[6] فإنه اعتنى بأمرها وبعث إلى عملها بدمشق فجاءت من أبدع شيء، ثم جلس السلطان في ليلة الجمعة حادي عشر شعبان وهي ليلة العرس على باب القصر وأشعلت تلـك الـشموع بأسرها، وجلس ابنه الأمير آنوك تجاهه وأقبل الأمراء جميعا وكل أمير يحمل بنفـسه شـمعه،

---

[1] الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٤٩، ص١١٨-١١٩.

[2] الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٥٦٤-٥٦٥.

[3] المقريزي، السلوك، ج٣، ص١٥٥.

[4] المصدر نفسه، ج٣، ص١٠١.

[5] هداياهم وقد تقدم.

[6] سنجر الجاولي: هو علم الدين سنجر من مماليك جاول أحد أمراء الظاهر بيبرس ثم انتقل بعـده إلـى بيـت السلطان المنصور قلاوون، وتوفي سنة ٧٤٥هـ/ ١٣٤٥م، الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٤٦٧-٤٦٨.

وخلفه مماليكه تحمل الشمع، فتقدموا على قدر رتبهم وقبلوا الأرض واحدا بعد واحد طول ليلهم"[١].

معروف اليوم في مصر أن أهل البنت هم الذين يجهزون بيت الزوجية، وهذه العادة كانت سائدة في مصر منذ عهد المماليك، فقد تبين ذلك في أكثر من موضع، فقد جهز السلطان الناصر بن قلاوون إحدى عشرة ابنة له بالجهاز العظيم فكان أقلهن جهازا بثمانمائة ألف دينار [٢].

وجرت العادة أن يكون عقد الزواج في المسجد ويأتوا بالمباخر المفضضة ويحرقون بها البخور، ثم بعد العقد ينصرفون بحفل كبير[٣].

وجرت العادة في الزواج في مصر المملوكية أن يدفع الزوج جزءا من المهر مقدما قبل عقد الزواج، أما الباقي الذي اصطلح عليه بمؤخر الصداق فكان يسدد على أقساط مؤجلة[٤]، ولقد مر أن الملك الناصر لما إحدى نسائه أصدقها ثلاثين ألف دينار، المعجل منها عشرون ألفا فقط[٥]، وعندما تزوج آنوك بن السلطان الناصر كان مبلغ الصداق من الذهب اثنا عشر ألف دينار المقبوض منه عشرة آلاف دينار فقط[٦].

كان المماليك يكتبون كتابا للصداق، يزينونه بألفاظ الإجلال والتعظيم والتكريم والتفخيم، ويعظمون شأن المرأة كما يعظمون شأن الرجل، ويعظمون المهر ويعظمون الشريعة الغراء.

ومن عادة النساء عند ولادة المرأة: طفلها يقبلن على الزغردة ويضربن الدفوف ويشرعن بالرقص واللهو واللعب، ثم يبدأن يصنعن الأطعمة الكثيرة ويجتمعن عند الوالدة أياما قد تبلغ سبعة أيام ليلا ونهارا، فكل من جاءت تهنئ جددن لها اللهو واللعب والرقص[٧].

واعتاد النساء بعد أسبوع أن يحتفلن بالطفل ويصنعن طقوسا خاصة كأن يأخذن شيئا من الملح، ويصبغن بعضه بالزعفران، ويخلطن فيه شيئا من الكمون الأسود ويوقدون الشمع الذي كان عند رأسه، وتلبس أم المولود ثيابا حسانا، ويدرن بها بولدها البيت كله، والقابلة أمامها حاملة للمولود، وامرأة أخرى أمام القابلة معها طبق فيه الملح المذكور وينثرنه في البيت يمينا

---

(1) المقريزي، السلوك، ج٣، ص١٥٤.

(2) المصدر نفسه، ج٣، ص٣١٢.

(3) ابن الحاج، المدخل، ج٢، ص٢٦٤.

(4) عبد الرزاق، المرأة في مصر المملوكية، ٧٣.

(5) المقريزي، الخطط، ج٣، ص١٢٢.

(6) المصدر نفسه، ج٣، ص١٥٢.

(7) ابن الحاج، المدخل، ج٣، ص٢٨٧.

وشمالا، وفي الطبق شيء من البخور بخور مخصوص بالولادة، ويزعمن أنه ينفع من الأمراض والكسل والعين والجان والشر كله، أنهم لا بد أن يجددوا كسوة لأهل البيت، وكذلك كل ما يحتاج إليه البيت حتى الحصير لا بد من تجديدها إلى غير ذلك مما اعتادوه[١].

وفي يوم عاشوراء اتخذت كثير من الشعوب الإسلامية طقوساً فيه فأهل المغرب العربي لهم طقوس وأهل العراق لهم طقوس، وأهل مصر لهم طقوس، وقد كانت النساء في مصر المملوكية لها طقوس خاصة بهذا اليوم بحيث يخرجن إلى المقابر والمساجد بمصر ويلبسن أحسن ثيابهن وزينتهن، ويقمن فيه من أول النهار إلى الزوال لا يشاركهن فيه الرجال ويتمسحن فيه بالمصاحف وبالمنبر، والجدران، ويضعن الحناء على كل حال، فمن لم يفعل ذلك منهن فكأنها ما قامت بحق عاشوراء!![٢].

وهناك عادة في مصر في العصر الحديث وهي استقبال الراجع من السفر أو الخارج من السجن إلى بيته فيستقبله أهل منطقته بالرقص والغناء والعزف والطبل، وقد تبين أن هذه العادة موجودة عند المصريين منذ عهد المماليك، حيث كانت المرأة إذا عاد زوجها من السفر أو الأسر جمعت الجواري والمغاني، وتضرب له الدفوف والمزامير فرحا بزوجها، ويغلق لأجله السوق ويقف له أقرانه وجيرانه في الاستقبال[٣].

ويطلق على بعض النساء ألقاب التضخيم من قبل وست الوزراء وست الخطباء، وست الفقهاء، وست العيال، وست القضاة، وست الناس، وست النعم[٤]، وقد أنكر هذه الظاهرة ابن الحاج المالكي فقال: "هذه النعوت تتردد بين أمرين: أحدهما شنيع قبيح وهو النعت بست الخلق وست الإسلام وست الحكام وست القضاة وست العلماء وست الفقهاء وست الناس وست النساء وست الكل وما أشبه ذلك.

ألا ترى أنه يدخل تحت عموم ذلك الأنبياء والرسل والعلماء والصلحاء وغير ذلك من الأخيار؟، وإن كان المسمى بذلك والمتلفظ به لا يعتقدون دخول من تقدم ذكرهم تحت العموم، وإذا لم يعتقدوا ذلك فهو تعمد كذب محض بلا ضرورة مع ما فيه من الكبر والفخر والتزكية والثناء والتعظيم والتشبه بالأعاجم"[٥].

---

(1) ابن الحاج، المدخل، ج٣، ص٢٩١.

(2) المصدر نفسه، ج١، ص٢٩٠-٢٩١.

(3) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٣٥٧.

(4) العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٢، ص١٢٦-١٣٠.

(5) ابن الحاج، المدخل، ج١، ص٢٣٨.

وتتحدث الروايات عن لعب الكرة في العصور القديمة، من بينها روايات عن السلطان صلاح الدين الأيوبي أنه كان يلعب الكرة[١]، وقد كان السلطان الناصر بن قلاوون يجيد لعب الكرة إلى الغاية بحيث إنه كان لا يدانيه فيها أحد فى زمانه تقريبا[٢]، ولكن لعبة الكرة التي في زمانهم هي غير لعبة الكرة في زماننا، فلعبة الكرة عندهم كانت من فوق الخيول وفي أيديهم العصي يتحكمون في الكرة بها ويحاولون الاحتفاظ بها، وهي لعبة فروسية، والذي يهم في هذا الموضوع هو رياضة الفروسية واللعب بالكرة فمع صعوبتها وحاجتها للقوة البدنية إلا أن نساء السلاطين كن يلعبن هذه الألعاب فيركبن الخيول العربية ويتسابقن، ويلعبن بالكرة[٣].

ومن العادات الاجتماعية التي سادت في ذلك العصر خروج النساء إلى دور البركة والتي احتوت على جملة من المفاسد منها: ركوبهن على الدواب في الذهاب، والعود على الصفة المتقدمة، ومنها خروج بعضهن من البيوت التي هناك على شاطئ البركة في الطريق متبرجات متزينات مختلطات بالرجال، وبعضهن يغتسلن في البركة، وبعض الرجال ينظرون في الغالب إليهن وما يفعلن أيضا من تبرجهن إن كان في تلك البيوت من ينظرهن من الطاقات وأبواب الريح، والأسطحة وغير ذلك ويظهرن ما بهن من الزينة وما عليهن من حسن الثياب، والحلي وغير ذلك وممازحتهن للرجال في الغالب على ما تقدم"[٤].

ومن العادات السلبية الأخرى ما يفعلنه في يوم السبت وهو أنهن لا يشترين فيه السمك ولا يأكلنه ولا يدخلنه بيوتهن، وهذه خصلة من خصال اليهود؛ لأن اليهود لا يصطادون السمك في يوم السبت ولا يدخلونه بيوتهم ولا يأكلونه، وقد أباح الله تعالى ذلك لهذه الأمة في كل وقت وأوان فمنعه هؤلاء عن أنفسهن، وكثير منهن لا يدخلن فيه الحمام، ولو كانت المرأة المسلمة قد ارتفع عنها حيضها تترك الصلاة في ذلك اليوم وتلك الليلة، ولا يشترين فيه الصابون ولا السدر ولا الأشنان[٥] ولا يغسلن فيه الثياب، وهذه كلها من خصال اليهود كما تقدم"[٦].

ووجدت عادة الإفطار في نهار رمضان، قال ابن الحاج عن هذه العادة: "... في بعض عوائد اتخذها بعض النساء المسلمات آل الأمر فيها إلى الإخلال ببعض الفرائض فمن ذلك ما يفعله بعض النسوة من إفطارهن في شهر رمضان المعظم قدره لغير عذر شرعي، وذلك أن

---

(1) المقريزي، السلوك، ج١، ص١٥٢.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص١٧٩.

(3) المقريزي، السلوك، ج٤، ص٥.

(4) ابن الحاج، المدخل، ج١، ص٢٧٠–٢٧١.

(5) الأشنان: مادة نباتية تستخدم كانت تستخدم للتنظيف، الزبيدي، تاج العروس، ج٢٤، ص٤٢٤.

(6) ابن الحاج، المدخل، ج١، ص٢٧٨–٢٧٩.

المرأة إذا كانت مبدنة وتخاف أنها إن صامت اختل عليها حال سمنها فتفطر لأجل ذلك؛ وكذلك بعض البنات الأبكار يفطرهن أهلهن خيفة على تغير أجسامهن عن الحسن والسمن، وكذلك من كانت منهن قد عقد عليها زوجها ولم يدخل بها بعد فتترك الصوم خيفة على بدنها أن ينقص، وكل هذا محرم اتفاقا بين الأئمة لا يختلف فيه... وهذا الفعل القبيح مشهور بينهن"[١].

ومن عادات زوجات السلاطين وزوجات العظماء في دولة الترك، إذا ماتت إحداهن صنع لها نعش وزين النعش ببشخاناة أو ناموسية مزركشة ومحاطة بالستائر[٢]، فقد جاء في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي في حديثه عن سنة ٨٧٠هـ/١٤٦٦م قال:" وتوقيت خوند شكرباي الناصرية الأحمدية زوجة السلطان الملك الظاهر خشقدم[٣]... ودفنت بتربة زوجها السلطان الملك الظاهر خشقدم التي أنشأها بالصحراء، وأنزلت من القلعة، ولم يغطّ نعشها ببخشاناه على عادة الخوندات، بل جعل على نعشها خرقة مرقعة للفقراء، وجعل أمام نعشها أعلام أحمدية، وكان ذلك بوصية منها، وكان أصلها جركسية الجنس، من عتقاء الملك الناصر فرج[٤] ابن الملك الظاهر برقوق"[٥].

والشاهد في القصة أن هذه المرأة (خوند شكرباي) أوصت بأن لا يغطى نعشها ببشخاناه كما كان يُفعل بالخوندات، وإنما آثرت الخرقة المرقعة كالفقراء ويبدو أنها كانت زاهدة في الدنيا وتخشى لقاء الله، فاختارت هذه الدفنة رجاء رحمة الله بها!![٦].

---

[1] ابن الحاج، المدخل، ج٢، ص٦٠.

[2] السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص٤٥.

[3] هو السلطان الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين خشقدم بن عبد الله الناصري المؤيّدي، وهو السلطان الثامن والثلاثون من ملوك التّرك وأولادهم بالديار المصرية، والأوّل من الأروام بعد أن تسلطن من الجراكسة وأولادهم ثلاثة عشر ملكا، تسلطن سنة ٨٦٥هـ، ومات سنة ٣٧٢هـ/١٤٦٧م، النجوم الزاهرة، ج١٦، ص٢٥٣-٣٥٦.

[4] تقدمت ترجمته عند الحديث عن أوقاف النساء.

[5] دُوزي، تكملة المعاجم العربية، ج٤، ص٢٤٤.

[6] رجعت إلى ترجمة شكرباي فوجدتها كما دل عليه طريقة دفنها، حيث قال السخاوي: "وكانت منطوية على خير ودين محمودة الأفعال والأقوال"، الضوء اللامع، ج١٢، ص٦٩.

الفصل الثالث

دور المرأة في الحياة الدينية والثقافية

أولاً: العلوم الدينية (علوم القرآن والحديث والفقه):

نال التعليم حظه من عناية السلاطين واهتمامهم، فأنشأوا المدارس والمساجد، واهتموا ببنائها وتنظيمها اهتماماً كبيراً حتى أنهم كانوا يقيمون احتفالاً بهيجاً عند الانتهاء من بناء مدرسة[١]، وقد أثارت مصر دهشة بعض الرحالة لكثرة ما فيها من مدارس، ومن هؤلاء الرحالة ابن بطوطة[٢].

وقد تنوعت ضروب المعرفة في هذه المدارس بين القرآن الكريم وعلوم الدين وعلوم اللغة، وبين الدراسات العلمية من كيمياء وطب وفلك، إلى الدراسات العقلية كالفلسفة والمنطق، ولم يكن أساتذة العلم في ذلك العصر، يبخلون بعلمهم ومعرفتهم وعطفهم على طلابهم. وقد أشار ابن فضل الله العمري إلى ذلك بقوله: "وليقبل في الدروس طلق الوجه على جماعته، وليستملهم إليه بجهد استطاعته، وليربيهم كما يربى الوالد الولد وليستحسن ما تجيء به أفكارهم[٣]، وازدهرت نتيجة ذلك حركة التأليف ازدهاراً واسعاً، شملت جميع مجالات العلوم كالتفسير والحديث والسيرة والتاريخ[٤].

وقد شاركت المرأة في هذا العصر في الحياة الثقافية، مشاركة ملحوظة سواء أكانت متعلمة أم معلمة، ولا شك أن الاهتمام بتعليمها قد ساعد على بروز دورها هذا بشكل واضح، فوجدت معلمات للبنات لتعليمهن القراءة والكتابة والقرآن والشعر وغير ذلك، ويظهر ذلك مما أشار إليه ابن بسام من الحذر من تعليم البنات الفاحش من الشعر والعلم الذي لا خير فيه فيقول: "ومعلمات البنات بمنعن بالغات البنات من الفواحش ومن القصائد والأشعار والكلام الذي لا خير فيه"[٥].

---

[١] المقريزي، السلوك، ج٢، ق٣، ص٥٩٨. بركة النيل: هذه البركة فيها بين مصر والقاهرة، وهي كبيرة جداً، قالت ابن السعيد عندما وصف القاهرة وأعجبني في ظاهرها بركة النيل لأنها دائرة البدر والمناظر فوقها كالنجوم، وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل. المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٦١-١٦٢.

[٢] زبدة الفكرة، ص٩٦.

[٣] تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، رحلة ابن بطوطة، دار صادر، بيروت، ص٣٨.

[٤] التعريف بمصطلح الشريف، ابن فضل الله العمري، طبع سنة ١٣١٢هـ، مصر، ص١٣٤-١٣٥.

[٥] نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ابن بسام، تحقيق حسام الدين السامرائي، ١٩٦٨، ص١٦٣.

وهذا يشير إلى أن بعض معلمات البنات كن يخرجن عن أصول التعليم النافع، إلى ما لا ينفع، أو نفع المعلمة في خطأ الاختيار للشعر الذي يجب تدريسه وتعليمه للبنات، مما قد يـؤدي إلى نتائج عكسية لا يؤدي إليها الشعر القويم والعلم الصحيح، وقد تنوعت مشاركة المـرأة فـي الحياة الثقافية، في مختلف فروعها ومنها:

علوم الحديث الشريف والقرآن العظيم:

القشيرية: هي رقيّة بنت محمد بن علي بن وهب العلامة شيخ الإسلام تقي الدين الشهير بابن دقيق العيد، قاضي القضاة في مصر سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٦م[١]، وقد كانت عالمه بالحـديث، عاشت بالقاهرة وحدثت بها وأجازت جماعة من العلماء وتوفيت سنة ٧٤١هـ/١٣٤١م[٢].

أم محمد المقدسية: زينب بنت أحمد بن عمر بن أبي بكر بن شكر، طال عمرها، وقـد حدثت بمصر وغيرها، وجاورت بالمدينة مدة، وكانت من النساء العابدات، توفيت يوم انـسلاخ عام ٧٢٢هـ/١٣٢٢م[٣].

بنت الأسْعَردي: زينب بنت الخطيب سليمان بن هبة الله بن رحمة الدمشقية ثم المصرية عالمة في الحديث الشريف، قال عنها الذهبي: "تفردت في زمانها، وتوفيت في ذي القعدة سـنة ٧٠٥هـ/١٣٠٦م"[٤].

أسماء بنت أحمد بن أحمد بن الحسين بن موسك الهكاري ولدت سنة ٨١٥هـــ/١٤١٢م من محدثات القاهرة[٥].

بنت مَكّي: زينب بنت مكي بن علي الحَرّاني: فقيهة محدثة، ازدحم عليها الطلبة يأخذون عنها علوم الدين، فاشتهرت، وهي من الصالحات، توفيت سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م[٦]، قال عنهـا الصفدي: "وروت الكثير وطال عمرها وكانت أسند من بقي من النساء في الدنيا"[٧].

---

(1) ابن دقيق العيد: محمد بن علي بن وهب بن مطيع الإمام العلامة شيخ الإسلام تقي الدين ابـن دقيـق العيـد القشيري المنفلوطي المصري، أحد الأعلام وقاضي القضاة ولد سـنة ٦٢٥هــ/ ١٢٢٨م، وتـوفي سـنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م، الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٤، ص١٣٧-١٣٨.

(2) الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٣٧٢-٣٧٣.

(3) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٥٧.

(4) الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان، (ت٧٤٨هـ/١٣٤٨م)، معجم الشيوخ الكبير، مكتبة الـصديق، الطـائف، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، ج١، ص٢٥٠.

(5) العسقلاني، الدرر الكامنة، ج١، ص٣٦٠.

(6) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣٨٢.

(7) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٥، ص٤٢.

أم الفضل: أسماء بنت يعقوب بن أحمد بن يعقوب بن عبد الله بن عبد الرحمن الحلبية الأصل ثم المصرية، المعروف والدها بابن الصابوني[1] تكنى أم الفضل، وحدثت وماتت في ثالث عشر صفر سنة ٧٦٢هـ/١٣٦١م، وقد زادت على التسعين[2].

عائِشَة بِنْت عَلي: عائشة بنت علي بن عمر، أم الخير المصرية المدعوة ست العرب، كانت عالمة بالحديث. روته، وحدثت بالكثير، قال ابن حجر العسقلاني: "حدثنا عنها بالسماع أبو المعالي الأزهري وغيره، وتوفيت بمصر ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م"[3].

عائِشَة بنت محمد: عائشة بنت محمد بن عبد الهادي المقدسي، أم محمد: سيدة المحدثين في عصر المماليك، وكانت تسكن دمشق فرحل إليها ابن حجر العسقلاني –قاضى قضاة الديار المصرية وعالمها وحافظها وشاعرها– وتعلم منها، حيث قرأ عليها كتبا كثيرة وروى عنها، وانفردت في آخر عمرها بعلم الحديث، وكانت في آخر عمرها أسند أهل زمانها، وهي من المعمرات المخضرمات فقد عاشت في عهد المماليك البحرية والبرجية حيث ولدت سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م وماتت سنة ٨١٦هـ/١٤١٣م[4].

المقْدِسِيَّة: فاطمة بنت محمد بن عبد الهادي المقدسية الصالحية، أم يوسف: أخت عائشة المذكورة آنفا، وهي كأختها عالمة بالحديث، كانت في الشام حدثت بالكثير، وأجاز لها علماء من دمشق ومصر وحلب وحماة وحمص وغيرها، قال ابن حجر: قرأت عليها الكثير من الكتب والأجزاء بالصّالحية، ونعم الشيخة كانت، وهي من المعمرات المخضرمات كأختها، فقد عاشت في عهد المماليك البحرية ثم البرجية وتوفيت سنة ٨٠٣ هـ/١٤٠١م[5].

فاطمة بنت أحمَد: فاطمة بنت أحمد ابن السلطان صلاح الدين الأيوبي: من فضليات النساء في مصر، روت الفقه والحديث، واشتهرت في عصرها، ٦٧٨ هـ/١٢٨٠م[6].

فاطمة التّنوخيّة: فاطمة بنت محمد بن أحمد التنوخية: خاتمة المسندين في دمشق، وحدثت بالكثير سمع منها الأئمة منهم الحافظ بن حجر، وماتت سنة ٧٧٨هـ/١٣٧٦م[7].

---

[1] الإمام جمال الدين أبو العباس بن شرف الدين بن الصابوني، نزيلَ القاهرة، وبها رأيتُه. وكان بالحديث قد عني، وحصّل الأصول المليحة فغني، ودأب واجتهد، وبلغ الذروة واقتعد، الصفدي، أعيان العصر، ج١، ص٤٣٤.

[2] العسقلاني، الدرر الكامنة، ج١، ص٣٦١.

[3] التقي الفاسي، محمد بن أحمد بن علي، (ت٩٨٣هـ/١٥٧٥م)، ذيل التقييد في رواة السنن والأسانيد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، تحقيق كمال يوسف الحوت، ج٢، ص٣٨٠.

[4] ابن العماد، شذرات الذهب، ج٩، ص١٧٨.

[5] المصدر نفسه، ج٩، ص٥٥.

[6] الزركلي، الأعلام، ج٥، ص١٣٠.

[7] السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص١٠١؛ الزركلي، الأعلام، ج٥، ص١٣٠.

مريم الأذرعية: مريم بنت أحمد بن محمد بن إبراهيم الأذرعي، من أعلام العلم بالحديث في القاهرة، حيث ولدت بالقاهرة، سنة ٧١٩هـ/١٣١٩م، وتعلم على يديها ابن حجر العسقلاني ولها كتاب حديث خرّجته لنفسها، وتوفيت بالقاهرة سنة، ٨٠٥هـ/١٤٠٢م[1].

ست العجم: فاطمة بنت محمد بن محمد بن جبريل بن أبي الفوارس بن، أم الحسن، وتدعى ست العجم، وكانت محدثة مكثرة سماعا وشيوخا، ذكرها ابن رافع، سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٧م[2].

سيدة المصرية: بنت موسى بن عثمان بن عيسى بن درباس أم محمد المارانية المصرية، كانت محدثة بمصر واشتر أمرها فرحل إليها العلماء ومنهم الشيخ الحافظ الإمام الذهبي، وأخذ إجازة منها، وعاد ورحل للقائها ولكنها متت قبل أن يصل إليها في رجب سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٦م[3].

سِتّ الوُزَرَاء: هي الشيخة الصالحة المعمرة مسندة الوقت أم عبد الله ابنة شمس الدين عمر بن أسعد التنوخية الدمشقية الحنبلية.

قال عنها الصفدي: "كانت مسندة العصر، وخريدة الرواية في القصر، رزقت الحظوة الباهرة، وطالت بذاك النجوم الزاهرة، فحدثت بالصحيح مرات، وفازت من ذاك بالصلات والمبرات، وكانت ثابتة على طول التسميع، مديدة الروح على الشروط وما يطرأ عليها من التفريع؛ إلا أنها انثالت عليها الجوائز، ولم تكن كمن عداها من العجائز[4].

وطلبت إلى مصر، وسمع منها الأمير سيف الدين أرغون النائب[5]، والقاضي كريم الدين الكبير[6]"، توفيت ست الوزراء سنة ٧١٦هـ/١٣١٦م[7].

---

(1) كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ج٣، ص٨٤٥.

(2) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣، ص٢٢٧-٢٢٨.

(3) الذهبي، معجم الشيوخ الكبير، ج١، ص٢٩٤.

(٤) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤، ص٣٨١-٣٨٢.

(5) أرغون: الأمير سيف الدين الدوادار الناصري كافل الممالك الإسلامية، اشتراه الملك المنصور قلاوون وهو صغير لولده الملك الناصر، وولاه السلطان الناصر نيابة مصر، وكان فقيهاً حنفياً، فاضلاً في مذهبه مُفتياً، يعرف دقائق المذهب، مات سنة ٧٣١هـ، الوافي بالوفيات، ج٨، ص٢٣١-٢٣٢.

(6) تقدمت ترجمته في الفصل الثاني عند الحديث عن حجة خوند طغاي.

(7) الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٣٩٨-٣٩٩.

مؤنسة بنت الأمير العماد علي بن الفارس بن عبد الله بن الناصري:

الصلاحي الفخري سمعت من ابن علاق وعمرت وهي والدة نجم الدين عبد الله بن علي الصنهاجي حدثت وماتت سنة ٧٣٢هـ/١٣٣٢م[١].

قطر النبات: سكرة بنت عبد الله، وكانت جارية لجمال الدين محمد بن علي بن عبد النور[٢] فأعتقها، وكانت من محدثات القاهرة، توفيت سنة ٧٨٥هـ/١٣٨٣م بالقاهرة رحمها الله تعالى[٣].

مؤنسة بنت صبيح: مؤنسة بنت صبيح بن عبد الله أم محمد عتيقة الجمال عبد الملك، وأجاز لها الفخر ابن البخاري وهو فخر الدين أبو الحسن علي بن أحمد بن عبد الواحد بن البخاري إمام عصره في الحديث المتوفى سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م وهو مفخرة لمن تتلمذ على يديه وأجاز له وقد لقب بمسند العالم[٤]، وحدثت وماتت سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م بالقاهرة[٥].

خديجة بنت العماد: خديجة بنت أبي بكر بن يوسف بن عبد القادر الخليلية إحدى شيخات ابن حجر العسقلاني قاضي القضاة بمصر، وصرح ابن حجر بإجازتها له، ماتت سنة ٨٠٢هـ/١٤٠٠م[٦].

ستيتة بنت الشيخ تقي الدين السبكي[٧] وأخت تاج الدين السبكي[٨]: ستيتة بنت علي بن عبد الكافي، ولدت بالقاهرة سنة ٧١٦هـ/١٣١٦م، وأحضرت علي حسن بن عمر الكردي

---

(1) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤، ص٣٨٥.

(2) جمال الدين الشاذلي، محمد بن علي بن عبد النور بن احمد الشاذلي كمال الدين ولد سنة ٧٢٥هـ، وكان من محدثي القاهرة، ومات في سنة ٧٩٠هـ، العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٤، ص٧١.

(3) ابن الكيال، بركات بن أحمد بن محمد الخطيب، ٩٢٩هـ/١٥٢٣م، الكواكب النيرات في معرفة من اختلط من الرواة الثقات، المكتبة الأمدادية، ط٢، ١٩٩٩م، تحقيق عبد القيوم عبد رب النبي، ص٤٤٩-٤٥٠.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص٣٢.

(5) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤، ص٣٨٥.

(6) ابن العماد، شذرات الذهب، ج٩، ص٣١.

(7) علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي الأنصاري الخزرجي، أبو الحسن، تقي الدين: شيخ الاسلام في عصره، وأحد الحفاظ المفسرين المناظرين، وهو والد التاج السبكي صاحب الطبقات، رحل من مصر إلى دمشق وتولى منصب قاضي القضاة هناك، له مصنفات لا تحصى، توفي سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٥م، الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢١، ص١٦٦-١٧٥.

(8) تاج الدين السبكي: عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، أبو نصر: قاضي القضاة، المؤرخ، الباحث، ولد في القاهرة وله مصنفات لا تحصى أشهرها طبقات الشافعية الكبرى، وتوفي سنة ٧٧١هـ/١٣٧٠م، ابن العماد، شذرات الذهب، ج١، ص٦٦-٦٧.

وسمعت من غيره تكنى أم الخير سمع منها أبو حامد بن ظهيرة وحدث عنها وماتت بالقاهرة سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٦م[1].

ستيتة بنت محمد: ستيتة بنت محمد بن غالي بن نجم الدين الدمياطي سمعت من أبيها شمس الدين[2] سمع منها الجماعة أبو حامد بن ظهيرة وغيره من أقراننا، وهي والدة المحدث بدر الدين ابن الصائغ[3] ماتت في سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م تقريبا[4].

ست القضاة: بنت يحيى بن أحمد ابن القاضي أبي نصر بن مميل الشيرازي، أم يحيى زوجة المفتي زين الدين ابن عبيد[5]، تزوج بها ودامت في عصمته اثنتين وخمسين سنة وتوفيت في ذي القعدة سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م، عن بضع وثمانين سنة، وهي من شيوخ الحافظ العلامة الذهبي صاحب سير أعلام النبلاء[6].

بنت الأعمى: فاطمة بنت عمر بن يحيى المدنية وتعرف ببنت الأعمى أجاز لها، من المحدثات بمصر[7].

وَجيهَة بِنْت عَلي: وجيهة بنت علي بن يحيى بن سلطان الأنصارية الصعيدية ثم الإسكندرية، وسمعت كثيراً وأجاز لها جماعة وخرج لها بعض أهل الحديث وحدث عنها جماعة كثيرة، عالمة بالحديث. أصلها من الصعيد بمصر سكنت الإسكندرية، وتوفيت بها سنة، ٧٣٢هـ/١٣٣٢م[8].

---

(1) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص١٣٠.

(2) شمس الدين: محمد بن غالي بن نجم بن عبد العزيز الدمياطي، عالم بالحديث وهو من مشاهير العدول بالقاهرة، توفي سنة بالقاهرة، ٧٤١هـ، السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن علي، (ت٧٧١هـ/١٣٧٠م)، معجم الشيوخ، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٤م، تحقيق: بشار عواد ورائد يوسف العنبكي ومصطفى إسماعيل الأعظمي، ٤٣٣-٤٣٤.

(3) هو محمد بن محمد بن عبد المجير بدر الدين ابن الصائغ الدمياطي، اعتنى بالحديث، وحصل كتباً كثيرة، مات سنة ٧٩٤هـ، ابن حجر، إنباء الغمر، ج١، ص٤٤٨.

(4) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص١٣٠.

(5) ابن عبيد المفتي: هو عبد الرحمن بن نصر المفتي الإمام زين الدين الفدمي السوادي الصالحي الحنفي، كان له في الفقه بصر حديد، وفي الشروط نظر ما لخصمه عنه محيد. شهد تحت الساعات، وأنفق عمره في الطاعات، إلى أن عجز وانقطع، ولمع برق ضعفه وسطع. وكان يعبر الرؤيا، ويأتي في كلامه بما هو الغاية العليا، ولم يزل إلى أن جف عوده، وزمجرت بالنزاع رعوده، الصفدي، أعيان العصر، ج٣، ص٤٨-٤٩. وتوفي رحمه الله تعالى سنة أربع وعشرين وسبع مئة، وله ست وثمانون سنة.

(6) الذهبي، معجم الشيوخ الكبير، ج١، ص٢٩٣-٢٩٤.

(7) ابن العماد، شذرات الذهب، ج٦، ص٣٢٩.

(8) الشوكاني، محمد بن علي، (١٢٥٠هـ)، البدر الطالع، دار المعرفة، بيروت، ج٢، ص٣٢٥.

أم الفضل: شهدة بنت عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلية الحلبية بنت الصاحب العلامة أبي القاسم، وكانت فاضلة عاقلة كاتبة، مولدها في أول سنة تسع عشرة وست مائة، وسمع منها ابن الظاهري، وأبو عمرو بن سيد الناس في سنة ثلاث، وسبعين وست مائة، وروت بمصر، ودمشق وحلب وبها توفيت في أثناء سنة تسع وسبع مائة وقد نيفت على التسعين[١].

كمالية: بنت أبى الذكر أحمد بن عبد القادر بن أبى الذكر الدمراوى الإسكندراني ولدت سنة ٦٥١هـ وسمعت من والدها ومن معين الدين الدمراوي مشيخته تخريج منصور بن سليم وأجاز لها أحمد بن عمر القرطبي وابن أبى الفضل المرسى والشيخ عبد السلام والمنذري والسفاقسي وآخرون وماتت في العشرين من شعبان سنة ٧٣١هـ/١٣٣١م[٢].

أم الخير المصرية: شهدة بنت القاضي بدر الدين أبي الحسن بن عبد العظيم الحصنية حضرت على السبط وسمعت من المرشيد العطار، شهدة بنت قاضي القضاة عز الدين عبد العزيز بن القاضي بدر الدين ابن جماعة سمعت بقراءة أبيها وتعلمت الكتابة وتزوجت بالقاضي تاج الدين المناوي وماتت في جمادى الآخرة سنة ٧٥٧هـ/١٣٥٦م.

الفقه: فرحة بنت أحمد بن عبد الله قريبة محمد بن غالي الدمياطي أحد شيوخ قاضي قضاة مصر ابن حجر العسقلاني[٣] سمعت عليه وعلى غيره، وسمع عليها المحدث برهان الدين الحلبي وهو برهان الدين أبو إسحق إبراهيم بن محمد بن خليل الشيخ الإمام الحافظ الحلبي المعروف بالقوف، علم بالحديث والنحو والفقه والقراءات والتصريف[٤].

فاطمة بنت عباس بن أبي الفتح: الشيخة المفتية الفقيهة العالمة الزاهدة العابدة، أم زينب البغدادية الحنبلية الواعظة، كانت تصعد المنبر وتعظ النساء، فينيب لوعظها ويقلع من أساء، وانتفع بوعظها جماعة من النسوة، ورقت قلوبهن للطاعة، وكانت عالمة بالفقه وغوامضه ومسائله العويصة، وكان العلماء يتعجبون من عملها، ويثنون على ذكائها وخشوعها وبكائها،

(1) معجم الشوخ الكبير للذهبي، ج١، ص١٢٩-١٣٠.

(2) الدرر الكامنة، ج٣، ص٢٦٩.

(3) محمد بن غالي بن نجم بن عبد العزيز الدمياطي شمس الدين أبو عبد الله ابن الشماع، كان من العدول بالقاهرة وهو من شيوخ ابن حجر العسقلاني حدثنا عنه بالسماع جماعة منهم ابن حماد والحلاوي والزينبي وأبو بكر بن حسين وآخرون قرأت بخط البدر النابلسي في مشيخته كان نظيف الثياب حسن الفكاهة وأسمع الكثير وأكثر عنه الطلبة، مات سنة ٧٤١هـ، ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤، ص١٣٣.

(4) توفي سنة ٨٤١هـ، ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص٢٣٧.

كانت بالشام ثم تحولت بعد السبع مئة إلى مصر، وانتفع بها في مصر من النساء جماعة كبيرة، وارتفع قدرها وبعد صيتها، وتوفيت بالقاهرة سنة ٧١٤هـ/١٣١٤م[١].

عائشة بنت إبراهيم بن صديق زوج الحافظ المزى[٢]:

ولدت سنة ٧٦١هـ/١٣٦٠م وكانت تحفظ القرآن وتلقنه النساء، كانت عديمة النظير لكثرة عبادتها وحسن تأديتها للقرآن تفضل فى ذلك على كثير من الرجال وأقرأت عدة من النساء وختمن عليها وانتفعن بها، وكانت زاهدة في الدنيا متقللة منها ماتت سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م[٣].

ثانياً: العلوم الأدبية واللغوية (علوم اللغة والأدب والنحو):

علم اللغة والأدب:

لم يقتصر اهتمام المرأة على العلوم الدينية فقط من حديث وتفسير ووعظ، بل تعداه إلى الاهتمام بالنواحي اللغوية والأدبية كذلك، فمن النساء من سمعت بالنحو وحفظته فهذه هي:

أم العز: نضار بنت محمد بن يوسف أم العز بنت الشيخ أبي حيان، سمعت من شيوخ مصر وصارت عالمة بالنحو والإعراب، وكانت تكتب وتقرأ، وتنظم الشعر، وكانت فوق ذلك فاضلة الكاتبة فصيحة خاشعة ناسكة وكانت تفوق كثيراً من الرجال في العبادة والفقه مع الجمال التام والظرف، ماتت سنة ٧٣٠هـ/١٣٣٠م[٤].

مؤنسة بنت الشيخ محمد بن علي بن البيطار:

كانت فاضلة أديبة لها أشعار كثيرة توفيت في سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م شعرها:

مودة شراب السلاف مدامة ... تميد بهم عند انقضاء المجالس

إذا جئتهم يوما لدفع ملمة ... رجعت بمأمول من الفضل آيس

لهم صحبة لا روح فيها كأنها ... شبيه التصاوير التي في الكنائس[٥]

ضيفة الحموية: هي شاعرة من جواري السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وأنشدت في السلطان هذه الأبيات الجميلة:

---

[١] الصفدي، أعيان العصر، ج٤، ص٢٨-٢٩.

[٢] المزي، جمال الدّين أبو الحجّاج يوسف أبي الزّهر، (ت٧٤٢هـ/١٣٤١م)، ابن العماد، شذرات الذهب، ج٨، ص٢٣٦.

[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٢٣٥.

[٤] العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٤، ص٣٩٥.

[٥] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤، ص٣٨٥.

ولقد نذرت بأن رأيتك سالما	ونظرت وجهك أن أصوم شهورا
حذرا عليك من الزمان وغدره	حتى تعود مؤيدا منصورا[١]

ثالثاً: الموسيقى والغناء:

كان للمرأة في العصر المملوكي الدور الكبير في الغناء والموسيقى، وظهرت في ذلك العصر المغنيات:

دنيا بنت الأقباعي: المغنية الدمشقية، اشتهرت بالتقدم في صناعتها فاستدعاها الملك الناصر حسن على البريد فأكرمها ثم وفدت على الملك الأشرف فحظيت عنده، ومن مآثرها أنها أعظم الأسباب في إسقاط ضريبة المغاني، سألت السلطان في ذلك فأجاب إليه ثم أراد ابن آقبغا آص إعادتها فتكلم الشيخ سراج الدين البلقيني والشيخ ضياء الدين مع الأشرف وهو ضعيف فأنكر على ابن آقبغا آص ذلك واستمر إبطاله[٢].

خوبي العوادة: خوبي كانت جارية الأمير سيف الدين بكتمر الساقي، اشتراها بعشرة آلاف دينار مصرية، كانت مغنية عواده، جميلة الحسن والطرب، لم يكن في مصر لها نظير، اشتراها الأمير بكتمر وهام بها، وكانت عازفة على العود ومهرت به جدا، قال عنها الصفدي: "إذا جست أوتارها أخذت من القلوب أوتارها، وجرى من لطف أناملها الماء في العود، وقيل: هذا البدر في السعود، فإذا غنت أغنت عن الأطيار، وإذا عنت عنت قلوب البررة الأخيار"[٣].

وظلت عند بكتمر الساقي حتى مات في طريق الحجاز فلما بلغها موته كسرت عودها، فباعها السلطان الناصر لبَشْتَاك بستة آلاف دينار، ولكنها لم تحظ عنده، ثم إنه وهبها لأحد مماليكه[٤].

ومن براعتها في الضرب على العود رويت القصص والحكايا، فقد ذكر الصفدي أنه لما اشتراها بكتمر الساقي وتعلق بها بلغ أمرها لامرأته أم أمير أحمد، فقالت له: أريد أنزل إلى دارك التي على البركة لأتفرج هناك، فعلم المقصود، فنزل إلى خوبي وقال لها: الست إذا جاءت إلى هنا اجلسي على يديها والعود في حجرك، واضربي قدامها وغني لها، فلما نزلت امرأته أم محمد ودخلت الدار أول ما توجهت إلى الشباك المطل على البركة، والتفتت إلى جهة الجواري

---

(1) عبد الرزاق، المرأة في مصر المملوكية، ٤٤.

(2) العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، ج١، ص١٦٣-١٦٤.

(3) الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٣٣٧-٣٣٨.

(4) العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٢، ص٩٥.

فرأت جارية بيضاء، وجميع ما عليها أبيض مصقول من غير زركش ولا حلـــي ولا مــصاغ فأنكرت ذلك، وقالت: من هي هذه[١].

فقبلت الأرض وقعدت، ووضعت العود في حجرها، وقالت: دستور، وغنت نوبة، فقالت امراة بكتمر: من هي هذه؟ فقالوا: هذه جارية الأمير، فقالت: هذه خوشداشتي، ثم أخذت بيـدها، وأجلستها إلى جانبها وأحضرت لها بدلة كاملة بطرز زركش، وحلياً ومصاغاً مما هو يجملـه، وقالت لمن يثق إليها: والله لما قالوا اشترى الأمير جارية بعشرة آلاف دينار وسكنها فـي داره على البركة، ظننت أنها تكون مثلي في الحشم والخدم والجواري والملبوس، ثم إنها طلعت بعـد ذلك إلى القلعة ولم تنكر من أمرها شيئاً، واطمأنت نفسها إلى ذلك[٢]، وماتت حوبي بعـد سـنة (٧٤٠هـ/١٣٣٩م)[٣].

عزيزة بنت السطحي: كانت من أعيان مغاني مصر، فريدة عصرها في النشيد مع حـسن الصوت وفصاحة بإعراب الشعر، وقيل لم يخلفها من بعدها أحد، وقد رأت من الأعيـان وأربـاب الدولة غاية العز والعظمة مالا يراه غيرها من أرباب هذا الفن، وكان لها بمصر شهرة زائدة وقـال فيها الشهاب المنصوري:

وفتـــاة نزهـــت طرفـــي فيهـــا	شـــغفت مـــسمعي بجـــوهر فيهـــا
منـــذ زارت محبهـــا وتغنـــت	كـــاد يرمـــي بنفـــسه مـــن أبيهـــا[٤]

رابعاً: جهود المرأة العمرانية والأوقاف

المنشآت الدينية والخيرية:

بناء الأوقاف والمساجد والبيمارستانات:

لقد مثل سلاطين المماليك العصر الذهبي لنظام الأوقاف، حيث أظهر المماليك الاهتمـام الشديد بالوقف الإسلامي، على صعيد السلاطين والأمراء وحتى الخوندات، وحرص المماليـك على تنوع مصادر الوقف حتى يبقى رافدا قويا يعزز وجود مؤسسات الوقف، لذا حرصوا على الإكثار من وقف الحوانيت والخانات والأموال وغيرها تقربا لله، وحذا حذوهم نساؤهم، فكل من لديه من سلاطين المماليك مال ثابت أو منقول كان يتشوف لوقفه، كما أن بعض السلاطين وجد

[١] الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٣٤١.

[2] المرجع نفسه، ج٢، ص٣٣٧-٣٣٩.

[3] العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٢، ص٩٥.

[4] عبد الرزاق، المرأة في مصر المملوكية، ٤٥.

في الوقف سبيلا للمحافظة على أملاكه، وكان أكثر السلاطين اهتماما بـــالوقف هـــو الـــسلطان الظاهر بيبرس وما عمر من الأوقاف في عصره فاق ما عمره سلاطين المماليك بأجمعهم[١].

قال ابن تغري بردي عن الظاهر بيبرس:"وعمّر جوامع ومساجد بالساحل يطول الشرح فى ذكرها حذفتها خوف الإطالة، وبُني فى أيامه بالديار المصريّة ما لم يبن فى أيـــام الخلفـــاء المصريّين، ولا ملوك بنى أيّوب من الأبنية والرّباع والخانات[٢] والقواسير[٣] والدّور والمـــساجد والحمّامات"[٤].

ووقفوا عليها الأوقاف المغلّة يجعلون فيها شركا لولدهم ينظر عليها أو يصيب منها، مع ما فيهم غالبا من الجنوح إلى الخير والتماس الأجور في المقاصد والأفعال، فكثـــرت الأوقـــاف لذلك وعظمت الغلات والفوائد وكثر طالب العلم ومعلّمه بكثرة جرايتهم منها، وارتحـــل إليهـــا النّاس في طلب العلم من العراق والمغرب ونفقت بها أسواق العلوم وزخرت بحارها، والله يخلق ما يشاء"[٥].

وقد كان للأوقاف في عصر المماليك أثر عظيم في استمرار الحياة العلميـــة وانتعاشـــها وسيرها في الطريق الصحيح ولعل السر الأكبر الكامن وراء النهضة الفكرية يعود إليها، حيـــث كانت المورد الأول لكل المؤسسات والفعاليات العلمية[٦].

ولقد تقدم في الفصل الأول والثاني ذكر لأوقاف وقفتها نساء السلاطين، ومن هذه النساء طغاي زوجة الناصر محمد بن قلاوون، التي وقفت وقفاً على المدرسة الناصرية، وأمـــرت أن يُفرّق فيه الخبز على الفقراء[٧]؛ وكذلك تقدم الحديث عن بركة خاتون (أم الـــسلطان الأشـــرف) التي بنت العمارة المسماة عمارة أمّ السلطان، وهي عبارة عن سوق كبير فوقه دور مـــن عـــدة

---

(1) الزاملي، (الأوقاف في فلسطين في عهد المماليك)، ٦٢.

(2) تقدم أن الرباع تطلق على الدور والمنازل، وأما الخانات فهي جمع خان وهو الفنـــدق بلغـــة أهـــل الـــشام، الزبيدي، تاج العروس، ج٢٦، ص٣١٦.

(3) القواسير جمع قيسارية وهي السوق، ويطلق على سوق الخضار تحديدا، دُوزي، تكملة المعاجم العربية، ج٨، ص٤٣٥.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٩٦.

(5) ابن خلدون، العبر، ج١، ص٥٤٨-٥٤٩.

(6) النهار، عمار محمد ، الأوقاف الإسلامية وأثرها على النهضة العلمية في عصر المماليـــك، بحـــث مـــصور ومنشور على الإنترنت، ١ /http://iefpedia.com/arab/wp-content/uploads/2011/05

(7) المقريزي، الخطط، ج٤، ص٣٠٠.

طوابق لسكن العامّة،وأوقفت ذلك كله على مدرستها المسماة (مدرسة أم السلطان) فتنفق على المدرسة والأساتذة والشيوخ وطلاب ويجري العلم وما يلزم للعملية التعليمية[١].

وهذا المبحث هو محاولة للإحاطة بدور المرأة بالتفصيل في بناء الأوقاف والمساجد والبيمارستانات في عصر المماليك، فبالله التوفيق.

قصر الحجازية:

بدأ عمارته الأمير سيف الدين قوصون[٢]، فشرع في عمارة سبع قاعات لكل قاعة اصطبل ومنافع ومرافق، وكانت مساحة ذلك عشرة أفدنة، فمات قوصون قبل أن يتم بناء ما أراد من ذلك، فصار يعرف بقصر قوصون إلى أن اشترته خوند تتر الحجازية ابنة الملك الناصر محمد بن قلاوون عمرته عمارة ملوكية وتأنقت فيه تأنقا زائدا، وأجرت الماء إلى أعلاه، وعملت تحت القصر إصطبلا كبيرا لخيول خدّامها، وساحة كبيرة يشرف عليها من شبابيك حديد، فجاء شيئا عجيبا حسنه، وأنشأت بجواره مدرستها آنفة الذكر المعروفة بالمدرسة الحجازية، وجعلت هذا القصر من جملة ما هو موقوف عليها، وبعدما ماتت صار يسكنه الوزراء والموظفون الكبار بالأجرة، والأجرة ترجع إلى المدرسة[٣].

رباط الخوزي:

والرباط هو المكان المعمول للأفعال الصالحة والعبادة، وصار يطلق على بيت الصوفية ومنزلهم، ولو قيل الرباط هو الزاوية لقيل نعم[٤]، ورباط الخوزي بنته خوند شيرين بنت عبد الله الرومية، أم الملك الناصر فرج بن برقوق ثاني سلاطين المماليك الجراكسة[٥]، وقد كانت أم ولد للملك الظاهر برقوق أول ملوك الجراكسة، وهي من المماليك الأتراك، وقد عاشت في عصر المماليك البحرية وماتت سنة ٨٠٢هـ/١٤٠٠م، في بدايات عصر البرجية ولها معروف ومآثر حسنة وأوقاف حتى خارج مصر، فقد جددت بمكة رباط الخوزي، ووقفت عليه وقفا، وأصلحت ما كان تهدم منه.

---

(1) المقريزي، السلوك، ج٤، ص٣٥٧.

(2) تقدمت ترجمته عند الحديث عن زواجه من ابنة الملك الناصر.

(3) المقريزي، الخطط، ج٣، ص١٣٠.

(4) كرد علي، خطط الشام، ج٦، ص١٣٤.

(5) تقدمت ترجمته.

ووقفت أوقافاً بمصر منها وقفها على مقبرة ولدها الناصر، وعلى عدة قــراء بمدرســة السلطان الظاهر برقوق في القاهرة[١].

حكر الست حدق:

وكانت حدق من جواري السلطان الملك الناصر محمد بن قــلاون، نــشأت فـــي داره وصارت قهرمانة لبيت السلطان يقتدى برأيها في عمل الأعراس السلطانية وقد تقدم شيء مـــن ذلك[٢]، وحكر الست حدق يعرف أيضا بالمريس، وكان بساتين، فعرف بالست حدق من أجـــل أنها أنشأت هناك جامعا فبنى الناس حوله، وأكثر من كان يسكن هناك الـــسودان، وبـــه يتخـــذ، وصار به عدّة مساكن وسوق كبير، يحتاج محتسب القاهرة أن يقيم به نائبا عنه للكشف عما يباع فيه من المعايش، وقد كان المريس على غاية من العمارة[٣].

حكر الست مسكة:

وهي جارية السلطان الناصر محمد بن قلاوون، نشأت في داره وصارت قهرمانة فـــي منزله، يقتدى برأيها في عمل الأعراس السلطانية والأعياد والمواسم[٤]، وهذا الحكـــر بـــسويقة السباعين بقرب جوار حكر الست حدق، عرف بالست مسكة لأنها أنشأت به جامعا، ثـــم أفـــرد وصار بستانا تنقل إلى جماعة كثيرية، فلما عمرت الست مسكة في هذا الحكر الجامع بنى الناس حوله حتى صار متصلا بالعمارة من سائر جهاته، وسكنه الأمـــراء والأعيـــان وأنـــشئوا بـــه الحمّامات والأسواق وغير ذلك[٥].

---

(1) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٦، ص٣١٧؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص٧٠.

(2) المقريزي، الخطط، ج٣، ص٢١٠.

(3) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٠٩.

(4) والغريب أن المقريزي في كتاب السلوك جعل مسكة وحدق امرأة واحدة فقال:" وجميع القهرمانـــات: مثـــل الست حدق المعروفة بالست مسكة"، السلوك، ج٣، ص٥٣؛ وقال في موضع آخر في الـــسلوك:" وحكـــرت الدادة حدق – وهي المعروفة باسم ست مسكة القهرمانة"، السلوك، ج٣، ص٣١٧؛ وكذلك فإن ابـــن حجـــر العسقلاني قال في الدرر الكامنة: "حدق القهرمانة الناصرية كان الناصر جعل إليها أمور نسائه فتحكمت في داره تحكما عظيما حتى صارت لا يقال لها إلا الست حدق وحجت مرة فضرب المثـــل بمـــا فعلتـــه مـــن الخيرات وعمرت جامعا ظاهر القاهرة وكان يقال لها ست مسكة فربما قيل للجامع جامع ست مسكة فيغلط بعضهم فيجعل في ست ألفا ولاما"، الدرر الكامنة، ج٢، ص٧.

(5) المقريزي، الخطط، ج٣، ص٢٠٩–٢١٠.

جامع الست مسكة:

وهذا الجامع بالقرب من الخليج الكبير خارج القاهرة، أنشأته الست مسكة جارية الملـــك الناصر محمد بن قلاون، وأقيمت فيه الجمعة عاشر جمادى الآخرة سنة (٧٤١هـــ/١٣٤٠م)[1].

مسجد الوزيرية:

هذا المسجد كان بالقرافة الكبرى، وله منارة بجوار بـــاب ربـــاط الحجازيـــة، وكانـــت الحجازية واعظة زمانها، وكانت من الخيّرات، لها القبول التام، وتدعى أمّ الخير، وكان لها من الصيت كما كان لابن الجوهريّ، وكانت على غاية من الكرم وحسن الأخلاق والشيم[2].

أوقاف طلنباي:

ويقال لها طلنباي وطلوبية[3] ابنة طفاجي ابن هندر بن بكر بـــن دوشـــي خـــان ابـــن جنكزخان، تزوجها السطان الناصر من بيت مُلك التتر سنة (٧٢٠هــ/١٣٢٠م)، على ثلاثـــين ألف دينار، منها عشرون ألفا معجلة، وماتت (٧٦٥هــ/١٣٦٤م)، ودفنت بتربتها خـــارج بـــاب البرقية بجوار تربة خوند طغاي أم أنوك[4]، وبقيت عنده مسموعة الكلمة محظية لديه حتى إنـــه مال إليها بكلياته وجزئياته، وسلمها أمور داره، واعتمد بذلك على حسبها ونسبها، ولها أوقـــاف كثيرة من المصانع والمساجد والمدارس وغير ذلك[5].

رباط الحجازية:

بنته وحبسته على الحجازية، فوز جارية عليّ بن أحمد الجرجراي الوزير، هو والمسجد الذي تقدّم ذكره[6].

رباط البغدادية:

هذا الرباط بداخل الدرب الأصفر تجاه خانقاه بيبرس، ومن النـــاس مـــن يـــسميه رواق البغدادية، وهذا الرباط بنته الست الجليلة تذكارباي خاتون ابنة الملك الظاهر بيبرس فـــي ســـنة

---

(1) المقريزي، الخطط ، ج٤، ص١٣٨.

(2) المصدر نفسه، ج٤، ص٣٤٠.

(3) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٢٥؛ المقريزي، الخطط، ج٣، ص١٢٢؛ ابن تغري بردي، النجـــوم الزاهـــرة، ج١١، ص٨٤.

(4) المقريزي، الخطط، ج٣، ص١٢٣.

(5) زينب فواز، الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، ٢٧٧.

(6) المقريزي، الخطط، ج٤، ص٣٤٥.

(٦٨٤هـ/١٢٨٥م)، للشيخة الصالحة زينت ابنة أبي البركات المذكورة آنفا، المعروفة ببنت البغدادية، فأنزلتها به ومعها النساء الخيرات، ويظل يعرف سكانه من النساء بالخير، وله دائما شيخه تعظ النساء وتذكرهنّ وتفقههنّ، وتودع فيه النساء اللاتي طلّقن أو هجرن حتى يتزوّجن أو يرجعن إلى أزواجهنّ صيانة لهنّ، لما كان فيه من شدّة الضبط وغاية الاحتراز والمواظبة على وظائف العبادات[1].

تربة باب الخوّاصين:

أنشأت التربة الخوند المعظمة ستيته بنت الأمير سيف الدين كوكاي المنصوري[2]، زوجة نائب الشام تنكز المذكور سابقا، وقد كانت خيرة صينة دينة. ترد زوجها عن أشياء كثيرة. وهي والدة الخوندة أم السلطان الملك الصالح صلاح الدين صالح، وأم فاطمة زوج الأمير سيف الدين بلجك ابن أخت الأمير سيف الدين قوصون.

توفيت رحمها الله تعالى في ليلة الاثنين ثالث شهر رجب الفرد سنة ثلاثين وسبع مئة، ودفنت في التربة التي لها على باب الخواصين بجانب المدرسة الطيبة، وعمل إلى جانب التربة رباط للنساء، توفيت بدار الذهب وصلي عليها بالجامع ثالث رجب، ودفنت بالتربة التي أمرت بإنشائها بباب الخواصين، وفيها مسجد وإلى جانبها رباط[3].

---

[1] المقريزي، الخطط، ج٤، ص٣٠٣.

[2] كوكاي الأمير سيف الدين أحد الأمراء المشايخ بالقاهرة، ولم يزل أميراً كبيراً مقدم ألف من الأيام الناصرية إلى أن توفي – رحمه الله تعالى – في جمادى الأولى سنة تسع وأربعين وسبع مئة، الصفدي، أعيان العصر، ج٤، ص١٦٢.

[3] الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٤٠٣.

الخاتمة

توصلت الدراسة الحالية إلى مجموعة من النتائج، ومن أهمها:

- تعتبر المرأة عنصراً أساسياً في مجتمع المماليك الأول، وقد لعبت دوراً هاماً في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وقد كان للعديد من النساء الشهيرات آثاراً واضحة في المجالات السياسية والأدبية والفنية والحضارية وغيرها.
- ساهمت المرأة في عصر المماليك الأول ببناء النظام الاقتصادي والاجتماعي والإسهام في دعمه ورفعته ومن ذلك القيام بنظام الوقف.
- لقد كان للمرأة في عصر المماليك الأول دور واضح في الشؤون السياسية واتخاذ الأحكام، حيث ظهرت المناصب العامة التي تتولاها المرأة.
- يتمثل دور المرأة في هذا العصر في إرساء وتثبيت قواعد الدولة، وقد تمثل ذلك في إعادة إحياء المهارات والعادات والتقاليد الاجتماعية التي أعطت دوراً هاماً لها.
- أسهمت المرأة بدور هام في الحياة العامة في العصر المملوكي الأول، حيث حظيت بمكانة رفيعة فيه، وأسهمت في تطوير العلوم النقلية والعقلية وبناء المنشآت الدينية والخيرية.

قائمة المصادر والمراجع

أ- المصادر الأولية:

١. ابن الأنباري، محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، (ت٣٢٨هـ/٩٤٠م)، الزاهر في معاني كلمات الناس، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

٢. ابن الحاج، محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي، (ت٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م)، المدخل، مكتبة دار التراث، القاهرة، بدون طبعة ولا سنة نشر.

٣. ابن العماد العكري، عبد الحي بن أحمد بن محمد الحنبلي، (ت١٠٨٩هـ/ ١٦٧٩م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، حققه عبد القادر الأرنؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

٤. ابن الكيال، بركات بن أحمد بن محمد الخطيب، (ت ٩٢٩هـ/١٥٢٣م)، الكواكب النيرات في معرفة من اختلط من الرواة الثقات، ج٩، تحقيق عبد القيوم عبد رب النبي، المكتبة الأمدادية، ط٢، ١٩٩٩م.

٥. ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر، (ت٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م)، تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

٦. ابن الوردي، عمر بن المظفر بن الوردي، (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، تحقيق أنور محمود زناتي، مكتبة الثقافة الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٨ هـ/ ٢٠٠٨م.

٧. ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد، (ت٧٧٢هـ- ١٣٠٢م)، رحلة ابن بطوطة رحلة ابن بطوطة (تتحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٤١٧م.

٨. ابن تغري بردي، يوسف بن تَغري بَرْدي بن عبد الله الأتابكي، (ت٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١١، دار الكتب، مصر.

٩. ابن تغري بردي، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الأتابكي، (ت٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م)، مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة، حققه نبيل محمد عبد العزيز أحمد، دار الكتب المصرية، ١٩٩٧م.

١٠. ابن تغري بردي، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الأتابكي، (ت٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م)، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق د. محمد محمد أمين، بدون سنة النشر، ج١١، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١١. ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد الكناني، (ت٨٥٢هـ / ١٤٤٩م)، إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق د حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، ج١١، مصر، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

١٢. ابن حنبل، أحمد بن محمد، (ت٢٤١هـ/ ٨٥٥م)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق وتخريج وتعليق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

١٣. ابن خلكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر، (ت٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)، وفيات الأعيان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٩٤م.

١٤. ابن رشد، محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الشهير بـابن رشد الحفيد، (ت٥٩٥هـ/١١٩٨م)، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤ م.

١٥. ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني، (ت٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

١٦. ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العمري، (ت٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٤٢٣ هـ.

١٧. ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير، (ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م)، البداية والنهاية، ج١٧، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٨م.

١٨. ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور، (ت٧١١هـ/ ١٣١١م)، لسان العرب، ج٧، دار صادر، بيروت.

١٩. ابن ناصر الدين، شمس الدين محمد بن عبد الله بن محمد القيسي الدمشقي، (ت٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م)، توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣م.

٢٠. التقي الفاسي، محمد بن أحمد بن علي، (ت٩٨٣ هــ / ١٥٧٥م)، ذيل التقييد في رواة السنن والأسانيد، تحقيق كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٠هــ/ ١٩٩٠م.
٢١. الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان، (ت٧٤٨هــ/ ١٣٤٨م)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج٣، حققه د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤١٠هــ/ ١٩٩٠م.
٢٢. الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان، (ت٧٤٨هــ/ ١٣٤٨م)، سير أعلام النبلاء، ج٧، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٩، ١٤١٣هــ/ لكل جزء محقق.
٢٣. الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان، (ت٧٤٨هــ/ ١٣٤٨م)، معجم الشيوخ الكبير، تحقيق الدكتور محمد الحبيب الهيلة: مكتبة الصديق، الطائف، ١٤٠٨ هــ/ ١٩٨٨م.
٢٤. السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، (ت٧٧١هــ/ ١٣٧٠م)، طبقات الشافعية الكبرى، ج٢٩، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي، ود.عبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العربية، بدون سنة نشر.
٢٥. السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن علي، (ت٧٧١هــ/ ١٣٧٠م)، معجم الشيوخ، تحقيق الدكتور بشار عواد، ورائد يوسف العنبكي، ومصطفى إسماعيل الأعظمي، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٤م.
٢٦. السخاوي، محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان، (ت٩٠٢هــ/١٤٩٧م) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٩ هــ/ ١٩٩٩م، تحقيق إبراهيم باجس عبد المجيد.
٢٧. السخاوي، محمد بن عبد الرحمن، (ت٩٠٢هــ/ ١٤٩٧م)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت، من دون سنة نشر.
٢٨. الشوكاني، محمد بن علي، (ت١٢٥٠هــ/ ١٨٣٤م)، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هــ/ ١٩٩٨م.
٢٩. الصفدي، خليل بن أيبك بن عبد الله، (ت٧٦٤هــ/ ١٣٦٣م)، أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق د. علي أبو زيد، ود. نبيل أبو عمشة، ود. محمد موعد، ود. محمود سالم محمد، ج٥،دار الفكر، دمشق، ودار الفكر المعاصر، بيروت، ١٤١٨هــ/ ١٩٩٨م.
٣٠. الصفدي، خليل بن أيبك بن عبد الله، (ت٧٦٤هــ/ ١٣٦٣م)، الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هــ/ ٢٠٠٠م.

٣١. عبد الرحمن بن خلدون، (ت٧٣٢- ٨٠٨هـ)، العبر وديوان المبتدا والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤٣١ هـ/ ٢٠٠١ م، تحقيق خليل شحادة.

٣٢. العجلوني، إسماعيل بن محمد، (ت١١٦٢هـ/ ١٧٤٩م)، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، مكتبة العلم الحديث، تحقيق الشيخ يوسف بن محمود الحاج أحمد.

٣٣. العسقلاني، أحمد بن علي ابن حجر، (ت٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون سنة نشر.

٣٤. العسقلاني، أحمد بن علي ابن حجر، التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، مؤسسة قرطبة، دار المشكاة، مصر، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، تحقيق أبو عاصم حسن بن عباس بن قطب.

٣٥. العصامي، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك، (ت١١١١هـ/ ١٦٩٩م)، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض.

٣٦. العليمي، مجير الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن، (ت٩٢٨هـ/ ١٥٢٢م)، الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، مكتبة دنديس، عمان، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، تحقيق عدنان يونس عبد المجيد نباتة.

٣٧. العيني، بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد، (ت٨٥٥هـ/ ١٤٥١م)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، تحقيق د. محمد محمد أمين.

٣٨. القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري، (ت٦٧١هـ/ ١٢٧٣م)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

٣٩. القلقشندي، أحمد بن علي، (ت٨٢١ هـ/ ١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق د.يوسف علي طويل، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٧م.

٤٠. المرادي، محمد خليل بن علي، (ت١٢٠٦هـ/ ١٧٩١م) ، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، دار ابن حزم ودار البشائر الإسلامية، ط٣، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٤١. مرتضى الزبيدي، محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، (ت١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م)، تاج العروس من جواهر القاموس، ج٣، تحقيق عبد الكريم العزباوي، مطبعة حكومة الكويت، لكل جزء سنة طباعة فالجزء الأول طبع سنة ١٩٦٥م والجزء الأربعين طبع سنة ٢٠٠١م، ولكل جزء محقق وقد يحقق الشخص أكثر من جزء، الجزء الأول تحقيق عبد الستار أحمد فراج، والجزء الثاني تحقيق علي الهلالي.
٤٢. مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، (ت٢٦١هـ/ ٨٧٥م)، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، المعروف بصحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت بدون طبعة ولا سنة نشر.
٤٣. المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر، (ت٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق د. جمال الدين الشيال، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر.
٤٤. المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر، (ت٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
٤٥. المقريزي، أحمد بن علي، (ت٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨ هـ.
٤٦. ياقوت الحموي، ياقوت بن عبد الله الرومي، (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)، معجم البلدان، ج١٢، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

ب- المراجع الحديثة:

١. حسين، محمد محمد، الإسلام والحضارة الغربية، دار الفرقان، بدون سنة نشر.
٢. رينهارت بيتر آن دُوزي، (ت١٣٠٠هـ/ ١٢٨٣م)، تكملة المعاجم العربية، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ١٩٧٩م، ترجمة محمَّد سَليم النعَيمي و جمال الخياط.
٣. الزحيلي، أ. د. وَهْبَة بن مصطفى، الفقه الإسلامي وأدلته، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
٤. الزركلي، خير الدين بن محمود بن علي، (ت١٣٣١هـ / ١٩١٢م)، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط٧، ١٩٨٦م.
٥. زينب فواز، زينب بنت علي بن حسين بن عبيد الله، (ت١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م)، الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، ١٣١٢هـ.

٦. عبد الرزاق، أحمد، المرأة في مصر المملوكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٩م.
٧. عبد الستار، محمد يونس أبو طلحة، لباس الرسول –صلى الله عليه وسلم– والصحابة والصحابيات –رضي الله عنهم أجمعين–، مطابع الوحيد، مكة المكرمة، ١٤٢٤هـ.
٨. عبده، قاسم، عصر سلاطين المماليك، دار الشروق، بيروت، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.
٩. فايز إبراهيم الزاملي، رسالة ماجستير في التاريخ بعنوان (تالأوقاف في فلسطين في عهد المماليك)، جامعة العلوم الإسلامية، غزة، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.
١٠. قلعجي، محمد رواس؛ وقنيبي، محمود صادق، معجم لغة الفقهاء، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
١١. كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.
١٢. كرد علي، محمد بن عبد الرزاق بن محمَّد، (ت١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م)، خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، ط٣، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.
١٣. محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مكتبة الآداب، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م.
١٤. مختار، أحمد عبد الحميد عمر، (ت١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، ١٤٢٩ هـ/ ٢٠٠٨ م.
١٥. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (تإبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)، دار الدعوة، مصر، بدون سنة نشر.
١٦. النبهاني، تقي الدين محمد بن إبراهيم، (ت١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، نظام الإسلام، ط٦، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
١٧. النبهاني، محمد بن إبراهيم، النظام الاجتماعي في الإسلام، دار الأمة، بيروت، ط٤، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
١٨. نجمي، كمال، يوميات أرباب السيوف والأقلام من الكتاب والقواد العظام في تاريخ العروبة والإسلام، سيناء للنشر، ومؤسسة الانتشار العربي، ١٩٩٨م.
١٩. نريمان، نريمان عبد الكريم أحمد، المراة في العصر الفاطمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م.

ج- البحوث والمقالات:

١. الدوسكي، عبير عنايت سعيد، بحث بعنوان (تخانقاهات مصر حتى نهاية عصر المماليك البحرية)، مأخوذ من رسالة دكتوراه بعنوان (تالخدمات العامة لدولة المماليك البحرية في مصر)، للدكتور عبير عنايت الدوسكي، ومنشور في مجلة العدد (ت ٢٠٣) لسنة (ت١٤٣٣هـ /٢٠١٢م)، ١٤٥٦، منشور على الإنترنت على موقع المجلات الاكاديمية العلمية العراقية برعاية دائرة البحث والتطوير -وزارة التعليم العالي والبحث العلمي العراقية: http://www.iasj.net/iasj?func/fulltext&aId/71960

٢. د. شفيق ياسر أحمد محمود، المماليك البحرية وقضاؤهم على الصليبيين في الشام، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السنة الحادية والعشرون، العدد الواحد والثمانون، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ١٤٠٩هـ.

The Role of Women in Egypt During the Early Mamluk Period

(648-784 H / 1250-1382 AD)

"Analytical Study"

Prepared by: Saja Mohammed Latif Al-Tamimi

Supervised By: Dr. Alian Al-Jaloudi

Abstract

This study aims to provide a comprehensive image about political, economic, and social situation during Mamluk first (648-784H/1250-1382AD), and the role played by Mamluk women in all fields, who left positive and negative effects on the communities at that time. Some women have had a clear impact in strengthening the foundations of the state, and supporting its pillars. While other women have had a clear impact in weakness and state collapse. And this can be shown clearly through governing by some Sultans who are powerful or weak, which highlighted the role of women in state leadership in the case of the weak governors.

Mamluk women have enjoyed great prestige in the muslim community in general and the Egyptian community in particular, and formed an important milestone in the evolution of the political, social, religious and cultural conditions, also women in the Mamluk first can be considered as an important and worthy topic for search and study. Since this state was born out of Asir and conflict on power, therefore, women have a prominent role in the political aspect and general life, where women have contributed in events develop.

This study consists of preface and three basic chapters plus sub-chapters, in addition to the conclusion and references.

In the preface, the researcher has addressed the Islamic community significance and the intervention of some foreign individuals in the governance such as Turks and

Persians and others, in addition to the emergence of women role in governance and leadership in order to reduce the influence of foreign intervention.

While the first chapter which entitled "the role of women in politics in Mamluk first" has addressed the role of mothers and wives of Sultans in political life such as Alder tree which was practiced a great leadership role in political life, where she was having a leadership role in managing the state reins, even after the death of her husband and transition of power for her, she became the main actor in controlling on the events at that time, in addition to the lady Ashton Khatoon and her impact on governance. While the lady Targhee the mother of Atok has become the greater since she married Al Nasser, especially in politics.

Moreover, Barakah Khatoon the mother of Sultan Ashraf was a respectful lady, where she was pay attention towards poor people, and many other women who have a basic role in the political and social life.

In chapter two the researcher addressed the women role in economic and social fields, where women have a main role in Waqf through establishing number of endowment buildings by the mothers and wives of Sultans in order to reap many advantages to the community represented in granting material aids to the poor people, therefore these endowments are involving of great importance for the Egyptian community because of their diversity between mosques, houses, general bathes and etc,. which benefit the poor people.

The living standard of Mumluk women was characterized by luxury and extravagance. Marriage and dowry and clothes and toiletry were from luxury purchases. And the social customs and traditions were multiple, but each one has its uniform in terms of preparing and conducting.

Also, the study addressed in chapter three to the women role in religious and cultural life, where the role of women has increased in many sciences such as, Koran

and Hadith, Fiqh and literature, grammar and Hadith sciences, in addition to their existence in religious and charitable institutions, where they have had a prominent role in koranic and Hadith memorize, and construction of waqfs (endowment buildings) and Bimaristans which have a big role in Islamic community in terms of service providing.